بسم الله الرحمن الرحيم

شـــرح

صحيح مسلم

كتاب صفة القيامة

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

الموقع على النت – رياض المتقين

www.almotaqeen.bet

القناة العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed

٥٣ – صفة القيامة والجنة والنار

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ اقْرَءُوا (فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) .

[خ : ٤٧٢٩] .

===========

(**العَظِيمُ**) أي : جُثّة، أو جاهاً عند الناس، وفي رواية ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة (الطويل، العظيم، الأكول، الشروب).

(**يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ**) لا يعدل .

(**عنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**) وهي البَقّة .

١–الحديث دليل على أن الرجل قد يكون عظيماً عند الناس ، لكن لا قدر له عند الله ، لخلُوّ قلبِه مِنَ الإيمانِ الَّذي هو محلُّ الوزنِ يومَ القيامةِ، وبه تثقلُ الموازينُ ، لأن العبرة بالإيمان والتقوى لا بالأجسام والأموال .

وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

قال ابن كثير : أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب.

وقال السعدي : ... ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلاً بما يستحق.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

وقد ذمَّ اللهُ تعالى المنافقِينَ أصحابَ الأجسامِ القويَّةِ المعتدلةِ، ولكنَّهم كالأخشابِ المسنَّدَةِ إلى الحائطِ لا يَسمعونَ ولا يعقلونَ فهم أشباحٌ بلا أرواحٍ .

فقال تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) .

قال ابن رجب : وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة مع حسن منظرهم، فَقَالَ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) .

فوصفهم بحسن الأجسام وتمامها، وحسن المقال (وفصاحته) حتى يعجب من منظرهم من رآهم، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به، ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم فارغة، فلهذا مثلهم بالخشب المسندة، التي لا روح لها ولا إحساس، وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) لأنهم لما أضمروا خلاف ما أظهروا خافوا الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب يظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شيء ويحسبه عليه.

وأما المؤمن : فبعكس هذه الصفات، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم ، لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم ، فقلوبهم ثابتة قوية عامرة ، فيكابدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته ، لضعف قلبه، ولا يخافون من ظهور ما في قلوبهم إلا خشية الفتنة عَلَى نفوسهم، فإن بواطنهم خير من ظواهرهم، وسرهم أصلح من علانيتهم.

قال سليمان التيمي: أتاني آت في منامي فَقَالَ: يا سليمان إنَّ قوة المؤمن في قلبه.

فالمؤمن لما اشتغل بعمارة قلبه عن عمارة قالبه استضعف ظاهره، وربما ازدري، ولو علم الناس ما في قلبه لما فعلوا ذلك.

قال علي لأصحابه: كونوا في الناس كالنحل في الطير كل الطير يستضعفها، ولو علموا ما في جوفها ما فعلوا.

والكافر والمنافق بعكس ذلك، قوي جسمه، لا تقلبه رياح الدُّنْيَا، وأما قلبه فإنه ضعيف ، تلاعب به الأهواء المضلة ، فتقلبه يمنة ويسرة ، فكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، كشجر الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض .

٢- الحديث دليل على أنَّ ذا القَدْرِ والجاهِ في الدُّنْيا إذا لم يكنْ ذا تقوًى، فليس له قدْرٌ عندَ اللهِ تعالى.

٣- ذم السمنة المفرطة ، وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة؛ أي: من كثرة الأكل، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى ، والغالب على الأغنياء البطر والأشر وكفر النعمة، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة، يؤتى بالرجل العظيم السمين؛ يعني: كثير اللحم والشحم، عظيم كبير الجسم لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، والبعوضة معروفة من أشد الحيوانات امتهانًا وأهونها وأضعفها، وجناحها كذلك.

٤- ذم التوسع في المآكل (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) .

٥- ذم السمَن ، وقد جاء في الحديث : عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ». قَالَ عِمْرَانُ فَلاَ أَدْرِى أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً « ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلاَ يُتَّمَنُونَ وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ) متفق عليه .تفق عليه .

والمراد بالسمن المذموم البدانة : إذا كان سببها كثرة الأكل أو الخلود إلى الراحة والكسل وعدم العمل .

أما البدانة التي تكون بسبب تقدم السن ، أو تكون بطبيعة الجسم ، كما لو كان الشخص بدينا وراثةً مثلا ؛ فهذه البدانة ليست مذمومة ، ولا يلام عليها الإنسان .

قال النووي : قال جمهور العلماء في مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ : الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا كَثْرَةُ اللحم، ومعناه أنه يكثر ذلك فيهم، قَالُوا: وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَةً فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا، وَالْمُتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَادِ " انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر (وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ) : أَيْ يُحِبُّونَ التَّوَسُّعَ فِي الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ، وَهِيَ أَسْبَابُ السِّمَنِ " انتهى .

وقال الشيخ محمد بن عثيمين : قوله : (ويظهر فيهم السمن) . "السمن" : كثرة الشحم واللحم ، وهذا الحديث مشكل ، لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان ، فكيف يكون صفة ذم ؟!

قال أهل العلم : المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف ، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها .

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه ، فلا يذم عليه ، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض ، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه . (القول المفيد)

ويدل لهذا المعنى أن الحديث ورد في سنن الترمذي بلفظ : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَتَسَمَّنُونَ وَيُحِبُّونَ السِّمَنَ) .

وروى ابن ماجة عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنِّي قَدْ بَدنْتُ، فَإِذَا رَكَعْتُ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعْتُ فَارْفَعُوا، وَإِذَا سَجَدْتُ فَاسْجُدُوا، وَلَا أُلْفِيَنَّ رَجُلًا يَسْبِقُنِي إِلَى الرُّكُوعِ، وَلَا إِلَى السُّجُودِ) .

قال الخطابي رحمه الله : قوله : (إني قد بدنت) يروى على وجهين :

أحدهما : بدّنت بتشديد الدال، ومعناه كبر السن . والآخر: بدُنت مضمومة الدال غير مشدودة، ومعناه: زيادة الجسم واحتمال اللحم " انتهى .

وكلا المعنيين قد حصل للرسول ﷺ .

فقد روى أبو داود عن أُمّ قَيْسٍ بِنْت مِحْصَنٍ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَسَنَّ وَحَمَلَ اللَّحْمَ، اتَّخَذَ عَمُودًا فِي مُصَلَّاهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ)

ومثل هذا أيضاً ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تصف صلاة الرسول ﷺ بالليل فقالت : (فلمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأخَذَه اللَّحْمُ ... إلخ الحديث) .

فهذه البدانة التي حصلت للرسول ﷺ كانت شيئاً يسيراً ولم تكن بدانة مفرطة ، وكانت بحكم تقدم سنه ﷺ .

٦-الحديث دليل على إثبات الميزان ، هو ميزان حقيقي له كفتان .

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وحديث أبي مالك قال ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان ..) .

ولحديث أبي هريرة . قال ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان ...) .

٧-واختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال :

القول الأول : أن الذي يوزن الأعمال نفسها .

وإلى هذا ذهب ابن حزم ، والطيبي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : والصحيح أن الأعمال هي التي توزن .

أ- لقوله ﷺ (والحمد الله تملأ الميزان) .

ب- ولحديث أبي هريرة قال : قال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ... : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) متفق عليه .

قالوا : هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها .

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

القول الثاني : أن الذي يوزن العامل (أي : صاحب العمل) .

أ-لحديث الباب (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) .

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد .

القول الثالث : أن الذي يوزن صحائف الأعمال .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر ، والقرطبي .

لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي .

القول الرابع : أن الجميع يوزن .

وإلى هذا ذهب ابن كثير ، وابن أبي العز ، وحافظ حكمي ، وابن باز وغيرهم .

قال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك : فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال .

وقال حافظ حكمي : الذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها .

وقال الشيخ ابن باز : الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن ، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة .

وهذا القول هو الراجح .

٨-**فإن قيل** : كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض ، لأن الوزن يكون للأجسام ؟

أجاب بعضهم : بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن .

قال ابن كثير : قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل ، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان .

وقال ابن أبي العز : فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ (جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِي ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصْدِيقًا لَهُ ثُمَّ قَرَأَ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

[خ : ٧٤١٤] .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَطْوِى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ) .

==========

(**جَاءَ حَبْرٌ**) أي: عالم من علماء اليهود.

(**وَسَائِرَ الْخَلْقِ**) أي: ممن لم يتقدّم له ذِكر .

(**عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ**) بفتح أوله، من الهزّ؛ أي: يحرّكهنّ .

١-لحديث دليل على مشهد من مشاهد يوم القيامة، وأن الله يقبض الأرض بيمينه ويطوي السماء.

كما قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

قال السعدي: يقول تعالى، وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات – على سعتها وعظمها – مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه.

{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به. ... (تفسير السعدي).

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسموات فقال (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

قال ابن كثير: والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعوفي، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وجاء في السنة بيان ما يقوله سبحانه بعد ذلك، كما في حديث الباب.

٢-وهذا القبض للأرض والطي للسموات يقع بعد أن يفني الله خلقه.

قال القرطبي: هذه الأحاديث تدل على أن الله سبحانه يفني جميع خلقه أجمع كما تقدم ثم يقول الله عز و جل (لمن الملك اليوم) فيجيب نفسه المقدسة بقوله (لله الواحد القهار).

وقيل: إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها على ما يأتي (لمن الملك اليوم) فيجيبه العباد (لله الواحد القهار) رواه أبو وائل عن ابن مسعود و اختاره أبو جعفر النحاس قال: والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس و لا بالتأويل .

والقول الأول أظهر، لأن المقصود إظهاره انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعوى المدعين وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه، وكل جبار ومتكبر وملكه، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم، وهذا أظهر، وهو قول الحسن و محمد بن كعب وهو مقتضى قوله الحق: [أنا المالك أين ملوك الأرض]؟ . (التذكرة)

٣ – في حديث ابن عمر السابق (... ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ)، وجاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر. أن رسول الله ﷺ قال (وكلتا يديه يمين).

فحديث ابن عمر يصف إحدى يدي الله بالشمال، والحديث الآخر ينص على أن كلتا يدي الله تعالى يمين.

وقد اختلف العلماء في دفع هذا التعارض على أقوال.

لكن قبل ذكر الخلاف، لابد بيان أن أهل السنة مجمعون على أن لله تعالى يدين، كما قال تعالى (بل يداه مبسوطتان).

فقيل في دفع التعارض:

قيل: بإثبات الشمال لله تعالى لحديث (بشماله) وحملوا حديث (وكلتا يديه يمين) على أنه قاله على جهة الأدب.

وإلى هذا ذهب الإمام عثمان بن سعيد الدارمي ، وأبو يعلى الفراء ، ومحمد بن عبد الوهاب.

قال الإمام الدارمي: إنما عنى رسول الله ﷺ باليدين فقال (كلتا يدي الرحمن يمين) إجلالاً لله وتعظيماً أن يوصف بالشمال، ولو لم يجز أن يقال كلتا يدي الرحمن يمين لم يقله رسول الله ﷺ .

واستدل هؤلاء بحديث ابن عمر السابق (ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ).

وقيل: كلتا يديه -سبحانه- يمين، ومنع هؤلاء إطلاق الشمال على يد الله تعالى.

وذهب إلى هذا ابن خزيمة، والبيهقي، والألباني.

للحديث السابق (وكلتا يديه يمين).

ولحديث ابن عمر. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (أول ما خلق الله تعالى القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة.

وضعف هؤلاء رواية (بشماله) تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وهو ضعيف.

وهذا أرجح.

٤-عظمة الله تعالى .

٥-تهديد شديد للمتكبرين .

٦-إثبات الملك لله تعالى .

٧-أن هذه العلوم الجليلة المتعلقة بصفات الله تعالى في التوراة عند اليهود في زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باقية عندهم لم يحرفوها ولم ينكروها.

٨-أن من أشرك به -سبحانه- لم يقدره حق قدره.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) .

===========

١-جاء في القرآن الكريم (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) .

قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام.

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

وقال القرطبي : قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام .

وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة.

والراجح الأول.

فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

قال الإمام القرطبي: وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

- o أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.
- o ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ....
- o وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ...).

وقال ابن الجوزي: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.) ا. هـ.

٢ –فإن قيل: ما الجواب: عن حديث الباب – فإنه يقتضي أن الأيام سبعة.

فالجواب: أن المحققين من العلماء على تضعيفه.

لمخالفته ظاهر القرآن الكريم، الذي يصرح بأن خلق السماوات والأرض وما فيهما تم في ستة أيام: يومان للسماء، وأربعة أيام للأرض وما فيها .

كما قال تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم).

وممن ضعفه: علي بن المديني ، والبخاري ، ويحيى بن معين ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والبيهقي ، وابن تيمية ، وابن القيم.

قال الإمام البخاري رحمه الله" وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح. (التاريخ الكبير).

وقال ابن تيمية: وكذلك روى مسلم: (خلق الله التربة يوم السبت)، ونازعه فيه من هو أعلم منه، كيحيى بن معين، والبخاري، وغيرهما، فبينوا أن هذا غلط، ليس هذا من كلام النبي ﷺ ، والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله

تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة، وقد رُوي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد.

٣ - باب فِي الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَصِفَةِ الأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ) .

[خ : ٦٥٢١] .

==========

(**يُحْشَرُ النَّاسُ**) بضم أوله، والحشر الجمع، واصطلاحاً: جمع الناس يوم القيامة للحساب.

(**عَفْرَاءَ**) قال النووي: بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَة وَالْمَدّ بَيْضَاء إِلَى حُمْرَة، وقال الخطابي: العفر بياض ليس بناصع.

(**كَقُرْصَةِ النَقِيِّ**) قال النووي: بِفَتْحِ النُّون وَكَسْر الْقَاف وَتَشْدِيد الْيَاء هُوَ الدَّقِيق الْحُورِيّ، وَهُوَ الدَّرْمَك، وَهُوَ الْأَرْض الْجَيِّدَة، قَالَ الْقَاضِي: كَأَنَّ النَّار غَيَّرَتْ بَيَاض وَجْه الْأَرْض إِلَى الْحُمْرَة.

(**لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ**) العلم والمعلم بمعنى واحد، قال الخطابي: يريد أنها مستوية، والمعلم بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة: هو الشيء الذي يستدل به على الطريق، وقال عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة، وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها.

قال النووي: قَوْله ﷺ (لَيْسَ فِيهَا عَلَم لِأَحَدٍ) هُوَ بِفَتْحِ الْعَيْن وَاللَّام، أَيْ: لَيْسَ بِهَا عَلَامَة سُكْنَى أَوْ بِنَاء وَلَا أَثَر.

١ - الحديث دليل على إثبات الحشر.

والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ).

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

وقال تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

٢- ويحشر كل شيء حتى البهائم ودل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ-قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

ب-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) .

والجلحاء هي التي لا قرن لها .

قال النووي : هَذَا تَصْرِيح بِحَشْرِ الْبَهَائِم يَوْم الْقِيَامَة ، وَإِعَادَتهَا يَوْم الْقِيَامَة كَمَا يُعَاد أَهْل التَّكْلِيف مِنْ الآدَمِيّين ، وَكَمَا يُعَاد الأَطْفَال وَالْمَجَانِين وَمَنْ لَمْ تَبْلُغهُ دَعْوَة ، وَعَلَى هَذَا تَظَاهَرَتْ دَلَائِل الْقُرْآن وَالسُّنَّة . قَالَ اللَّه تَعَالَى : (وَإِذَا الْوُحُوش حُشِرَتْ) وَإِذَا وَرَدَ لَفْظ الشَّرْع ، وَلَمْ يَمْنَع مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى ظَاهِره عَقْل وَلا شَرْع وَجَبَ حَمْله عَلَى ظَاهِره . قَالَ الْعُلَمَاء : وَلَيْسَ مِنْ شَرْط

الْحَشْر وَالإِعَادَة فِي الْقِيَامَة الْمُجَازَاة وَالْعِقَاب وَالثَّوَاب، وَأَمَّا الْقِصَاص مِنْ الْقَرْنَاء لِلْجَلْحَاءِ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ قِصَاص التَّكْلِيف إِذْ لا تَكْلِيف عَلَيْهَا ، بَلْ هُوَ قِصَاص مُقَابَلَة . وَاَللَّه أَعْلَم اهـ .

ج_ قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

د_ وحديث أبي ذر. (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أباذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني تراباً، فتكون تراباً، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً)

٣-الحديث دليل على صفات أرض المحشر :

أ-الحشر يكون على أرض غير هذه الأرض : تكون بيضاء عفراء ليس فيها معلم لأحد .

ب- يكونون في صعيد واحد ينفذهم يسمعهم الداعي وينفذهم البصر .

وعن أبي هُريرةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ (يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ، يُسمِعُهمُ الدَّاعي ويَنْفُذُهمُ البَصَرُ، وتَدنو الشَّمسُ، فيَبلُغُ النَّاسَ من الغَمِّ والكَربِ ما لا يُطيقونَ ولا يَحتَمِلونَ) متفق عليه .

قال ابنُ حَجَرٍ: قال النَّوَويُّ: الصَّعيدُ: الأرضُ الواسِعةُ المستَويةُ. ويَنفُذُهم -بفَتحِ أوَّلِه وسُكونِ النُّونِ وضَمِّ الفاءِ، بَعدَها ذالٌ مُعجَمةٌ- أي: يَخرِقُهم، بمُعجَمةٍ وقافٍ، حَتَّى يَجوزَهم، وقيلَ: بالدَّالِ المهمَلةِ، أي: يَستَوعِبُهم، قال أبو عُبيدةَ: مَعناه: يُنْفُذُهم بَصَرُ الرَّحمَنِ حَتَّى يَأتِيَ عليهم كُلِّهم، وقال غَيرُه: المرادُ بَصَرُ النَّاظِرينَ، وهو أَولى، وقال القُرطُبيُّ: المعنى أنَّهم يُجمَعونَ في مَكانٍ واحِدٍ بحَيثُ لا يَخفى منهم أحَدٌ لَو دَعاهم داعٍ لسَمِعوه، ولَو نَظَرَ إليهم ناظِرٌ لأدرَكَهم. قال: ويُحتَمَلُ أن يَكونَ المرادُ بالدَّاعي هنا مَن يَدعوهم إلى العَرضِ والحِسابِ؛ لقَولِه: يَومَ يَدْعُ الدَّاعِ) .

وقال ابنُ عُثَيمين: إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعالى يَجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ مُتَساوٍ، يُسمِعُهمُ الدَّاعي ويَنفُذُهمُ البَصَرُ، نَحنُ في الدُّنيا لَسنا على أرضٍ مُتَساويةٍ، بَل على أرضٍ تُشبِه الكُرَةَ؛ ولِذلك لا يَنفُذُ البَصَرُ إلى ما وراءَ المنحَنى؛ مُنحَنى الكُرةِ، ولا يُسمعُ الدَّاعي، لَكِن في الآخِرةِ يَقولُ الله عزَّ وجَلَّ (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) يَعني: تُمَدُّ مَدًّا واحِدًا ليس فيها جِبالٌ ولا انحِناءٌ ولا مَساكِنُ؛ ولِهذا يُسمِعُهمُ الدَّاعي؛ لأنَّه لا يوجَدُ شَيءٌ يَرُدُّ الصَّوتَ، ويَنفُذُهمُ البَصَرُ: يُرى أقصاهم كما يُرى أدناهم، فيُحشَرُ الخَلائِقُ كُلُّهم على هذه الأرضِ المسطوحةِ، لا جِبالَ ولا أنهارَ ولا شِعابَ ولا غَيرَها .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ « عَلَى الصِّرَاطِ) .

==========

١-الحديث دليل على أن تبديل الأرض يحصل وقت مرور الناس على الصراط، أو وهم ينتظرون المرور على الصراط، أي بعد الحشر.

أ-لحديث الباب .

وفي الحديث (أن يهوديًا سأل النبي ﷺ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ) .

قال ابن تيمية : وحشرهم وحسابهم يكون قبل الصراط، فإن الصراط عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث .... وحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: يدل على أن التبديل وهم على الصراط .

٢-الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض:

لقوله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

وللحديث السابق (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي) .

٣-ووَقَعَ خِلافٌ في أرضِ المِحْشَرِ فهَل هيَ أرضٌ أخرى غَيرُ أرضِ الدُّنيا أو هيَ ذاتُها مَعَ تَبديلِ صِفاتِها إلى صِفاتٍ أخرى؟

قال اللهُ تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

فذهب بعض العلماء : أنها تبدّل بغيرها .

قال القُرطُبيُّ: إنَّ المرادَ بتَبديلِ الأرضِ المذكورةِ في قَولِه تعالى (يومَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) إنَّه تَبديلُ ذاتٍ بذاتٍ، فيُذهَبُ بهذه الأرضِ ويُؤتى بأرضٍ أُخرى، وهو قَولُ جُمهورِ العُلَماءِ .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدل من الأرض : إنما هو صفاتها فحسب:

قال القرطبي رحمه الله تعالى: واختلف في كيفية تبديل الأرض، فقال كثير من الناس: إنّ تبدُّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها . (تفسير القرطبي)

ويدل لذلك :

حديث عبد الله بن عمرو الموقوف عليه، قال: إذا كان يوم القيامة مُدت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق .

وحديث جابر، رفعه (تمدُّ الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه) ورجاله ثقات، إلا أنه اخْتُلِفَ عَلَى الزُّهْرِيِّ فِي صَحَابِيِّهِ.

وحديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) قال: يزاد فيها، وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها، وشجرها، وتمد مد الأديم العكاظي .

قال ابنُ الجَوزيِّ: وفي مَعنى تَبديلِ الأرضِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّها تلك الأرضُ .

وإنَّما يُزادُ فيها ويُنقَصُ منها، وتَذهَبُ آكامُها وجِبالُها وأوديَتُها وشَجَرُها، وتُمَدُّ مَدَّ الأديمِ .

وقد رَوى أبو هُريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ : يَومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيرَ الأرضِ قال (يَبْسُطُها ويَمُدُّها مَدَّ الأديمِ) .

والثَّاني: أنَّها تُبَدَّلُ بغَيرِها .

وقال السَّعديُّ: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتُ) تُبَدَّلُ غَيرَ السَّمَواتِ، وهذا التَّبديلُ تَبديلُ صِفاتٍ، لا تَبديلُ ذاتٍ؛ فإنَّ الأرضَ يَومَ القيامةِ تُسوَّى وتُمَدُّ كمدِّ الأديمِ ويُلقى ما على ظَهرِها من جَبَلٍ ومَعلَمٍ، فتَصيرُ قاعًا صَفْصفًا، لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا .

وقال حافِظٌ الحَكَميُّ : تَبديلُ الأرضِ والسَّمَواتِ هو تَغييرُها من حالٍ إلى حالٍ، وإلَّا فهيَ هيَ. واللهُ أعلَمُ .

٤-الأرض التي يبعث منها الناس من قبورهم قد نص القرآن على أنها هي هذه الأرض التي يحيا الناس عليها .

كما في قول الله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) .

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله تعالى: فتأويل الكلام: من الأرض أخرجناكم، ولم تكونوا شيئا، خلقا سويا، وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرّة أخرى، كما أخرجناكم منها أوّل مرة .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا).

وهذه الآية كقوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) . (ابن كثير)

وما يحلّ بها من أهوال القيامة لا يفنيها، بل تبدّل صفاتها وتبقى ذاتها.

٥ – إثبات الصراط.

وهو شرعاً: الجسر الممدود على جهنم ليعبر الناس عليه إلى الجنة.

وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

أ–قال تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً).

فسرها عبد الله بن مسعود وقتادة وزيد بن أسلم بالمرور على الصراط.

قال النَّوَوِيُّ: الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بالوُرودِ في الآيةِ المرورُ على الصِّراطِ، وهو جِسرٌ مَنصوبٌ على جَهَنَّمَ، فيَقَعُ فيها أهلُها ويَنجو الآخَرونَ .

وقال ابن تيمية : وأما الوُرودُ المذكورُ في قَولِه تعالى : وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا فقد فسَّرَه النَّبيُّ ﷺ في الحَديثِ الصَّحيحِ أخرجه مُسلِمٌ في صَحيحِه عن جابر : بأنه المرورُ على الصِّراط ، والصِّراطُ هو الجِسرُ؛ فلا بُدَّ من المرورِ عليه لكُلِّ مَن يَدخُلُ الجَنةَ من كان صَغيرًا في الدُّنيا ومن لَم يَكُن .

وقال ابنُ أبي العِزِّ: اختَلَفَ المفَسرونُ في المرادِ بالوُرودِ المذكورِ في قَولِه تعالى (وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) ما هو؟ والأظهَرُ والأقوى: أنَّه المرورُ على الصِّراطِ، قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا .

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ في حديث طويل: (... ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم). متفق عليه .

قال ابنُ حَجَرٍ: قَولُه (ثُمَّ يُؤتى بالجِسرِ) أي: الصِّراطِ، وهو كالقَنطَرةِ بينَ الجَنةِ والنَّارِ يَمُرُّ عليها المؤمِنونَ .

قال النووي: وَفِي هَذَا إِثْبَات الصِّرَاط، وَمَذْهَب أَهْل الْحَقّ إِثْبَاته، وَقَدْ أَجْمَعَ السَّلَف عَلَى إِثْبَاته. وَهُوَ جِسْر عَلَى مَتْن جَهَنَّم يَمُرّ عَلَيْهِ النَّاس كُلّهمْ، فَالْمُؤْمِنُونَ يَنْجُونَ عَلَى حَسَب حَالهمْ أَيْ: مَنَازِلهمْ، وَالْآخَرُونَ يَسْقُطُونَ فِيهَا، أَعَاذَنَا اللَّه الْكَرِيم مِنْهَا، وَأَصْحَابنَا الْمُتَكَلِّمُونَ وَغَيْرهمْ مِنْ السَّلَف يَقُولُونَ: إِنَّ الصِّرَاط أَدَقّ مِنْ الشَّعْرَة وَأَحَدّ مِنْ السَّيْف كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو سَعِيد الْخُدْرِيُّ ﵁ هُنَا فِي رِوَايَته الْأُخْرَى الْمَذْكُورَة فِي الْكِتَاب.

وقال أبو الحسن الأشعري: وأجمعوا على أن الصراطَ جسرٌ ممدود على جهنم، يجوز عليه العبادُ بقدر أعمالهم، وأنهم يتفاوتون في السرعة والإبطاء على قدر ذلك.

وقال السفاريني: اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن جهنم، أحدّ من السيف وأدق من الشعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم) وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيم) ومنهم من حمله على الأدلة

الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها.

صفة الصراط:

قيل: إنه طريق واسع.

لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هذا.

ولأنه جاء في الحديث حينما سئل النبي عن الصراط قال (دحض ومزلة) والدحض والمزلة لا يكون إلا بطريق واسع.

وقيل: إنه طريق دقيق جداً.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: (بلغني أنه أدق من الشعر وأحد من السيف).

وروى الإمام أحمد نحوه عن عائشة – رضي الله عنها – مرفوعاً.

لا يعبر على الصراط إلا المؤمنون على قدر أعمالهم.

ففي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (... فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ).

قال العيني: (كالطرف): بكسر الطاء وهو الكريم من الخيل وبالفتح البصر، قلت: المعنى الثاني هو المراد بدليل أن النبي ﷺ ذكر بعد ذلك البرق، والريح، ومرور الخيل على الترتيب في السرعة. (أجاويد الخيل): جمع الأجود وهو جمع الجواد وهو فرس بيِّنٌ الجودة. (الركاب): الإبل واحدتها الراحلة من غير لفظها). (عمدة القاري).

قال النووي : قَوْله ﷺ (فَنَاجٍ مُسَلَّم وَمَخْدُوش مُرْسَل وَمَكْدُوس فِي نَار جَهَنَّم) أَنَّهُمْ ثَلَاثَة أَقْسَام، قِسْم يَسْلَم فَلَا يَنَالهُ شَيْء أَصْلًا، وَقِسْم يُخْدَش ثُمَّ يُرْسَل فَيُخَلَّص، وَقِسْم يُكَرْدَس. وَيُلْقَى فَيَسْقُط فِي جَهَنَّم.

وفي الحديث (... فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ». قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ قَالَ «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا – قَالَ – وَفِى حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ).

وفي صحيح البخاري: (حتى يمر آخرهم يسحب سحباً).

يعطي الله كل إنسان نوراً على قدر عمله يتبعه على الصراط:

كما في حديث جابر عند مسلم (وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ – مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ – نُورًا ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ).

وكما في حديث ابن مسعود الطويل الذي فيه يقول النبي ﷺ (فيعطون نورهم على قدر أعمالهم وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفئ قام).

وأول من يعبر الصراط من الأنبياء محمد ﷺ ومن الأمم أمته ﷺ .

لقوله ﷺ (فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل).

فإذا عبروا الناس وقفوا في مكان يقال له القنطرة:

وهي جسر صغير ليقتص بعضهم من بعض اقتصاصاً غير الاقتصاص الأول الذي في عرصات القيامة، الهدف منه إزالة ما في القلوب من الغل والحسد.

لأن أهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى تطهر قلوبهم من الغل والحسد:

قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا).

الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين.

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة، فتسير تلك الآلهة بالعابدين، حتى تهوي بهم في النار، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط.

ورجح ذلك ابن رجب فقال:

واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا شريك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط إنما يقعون في النار قبل وضع الصراط.

وذكر رحمه الله:

حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «نَعَمْ». قَالَ «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ...) متفق عليه.

قال ابن رجب: فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح وعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا فترد النار مع معبودها أولا و قد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون:

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود)، وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ثم يردون في النار بعد ذلك. (التخويف من النار).

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى (وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ).

فالجواب:

المنع، نمنع أن يكون المراد بالصراط في هذه الآية هو الصراط المنصوب على متن جهنم، بل المقصود به هو الطريق الحق الموصل للجنة.

قال البغوي: في تفسير الآية، أي: عن دين الحق لعادلون مائلون.

وقال الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) ذَكَرَ -جَلَّ وَعَلَا- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ، نَاكِبُونَ عَنِ الصِّرَاطِ، وَالْمُرَادُ بِالصِّرَاطِ، الَّذِي هُمْ نَاكِبُونَ عَنْهُ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوَصِّلُ إِلَى الْجَنَّةِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ قَبْلَهُ: وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ نَكَبَ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، دَخَلَ النَّارَ بِلَا شَكٍّ.

٤ – باب نُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَكْفَؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلاً لأَهْلِ الْجَنَّةِ ». قَالَ فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ أَبَا الْقَاسِمِ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ « بَلَى ». قَالَ تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً –كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَنَظَرَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ قَالَ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ قَالَ « بَلَى ». قَالَ إِدَامُهُمْ بَالاَمُ وَنُونٌ. قَالُوا وَمَا هَذَا قَالَ ثَوْرٌ وَنُونٌ يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا) .

[خ : ٦٥٢٠] .

==========

(**خُبْزَةً**) بضم الخاء وفتح الزاي.

(**وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا**) أي: يميلها، وعند مسلم (يكْفؤها) بسكون الكاف.

(**كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ**) **قال النوويّ**: خبزة المسافر: هي التي يجعلها في الْمَلَّة، ويتكفأها بيديه، أي: يُميلها من يد إلى يد، حتى تجتمع، وتستوي؛ لأنها ليست منبسطة؛ كالرُّقَاقة، ونحوها، قال: ومعنى الحديث أن الله تعالى يجعل الأرض كالطُّلمة ، والرَّغيف العظيم، ويكون ذلك طعاماً نُزُلاً لأهل الجنة، والله على كل شيء قدير. انتهى

(**بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) النزل: ما يقدم للضيف وللعسكر، قال النووي: النزل، فَبِضَمِّ النُّون وَالزَّاي، وَيَجُوز إِسْكَان الزَّاي وَهُوَ مَا يُعَدّ لِلضَّيْفِ عِنْد نُزُوله.

(**فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ**) يريد أنه أعجبه إخبار اليهودي عن كتابهم بنظير ما أخبر به من جهة الوحي.

(**ثُمَّ قَالَ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِم**) ما يؤكل به الخبز.

(**قَالَ إِدَامُهُمْ بَالاَمُ وَنُونٌ. قَالُوا وَمَا هَذَا قَالَ ثَوْرٌ** ..) قال الخطابي فأما نون فهو الحوت على ما فسر في الحديث وأما بالأم فدل التفسير من اليهودي على أنه اسم للثور.

قال النووي: أَمَّا (النُّون) فَهُوَ الْحُوت بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاء، وَأَمَّا (بِاللَّامِ) فَبِبَاءٍ مُوَحَّدَة مَفْتُوحَة، وَبِتَخْفِيفِ اللَّام وَمِيم مَرْفُوعَة غَيْر مُنَوَّنَة، وَفِي مَعْنَاهَا أَقْوَال مُضْطَرِبَة الصَّحِيح مِنْهَا: الَّذِي اِخْتَارَهُ الْقَاضِي وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ، أَنَّهَا لَفْظَة عِبْرَانِيَّة مَعْنَاهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ: ثَوْر، وَفَسَّرَهُ بِهَذَا، وَلِهَذَا سَأَلُوا الْيَهُودِيّ عَنْ تَفْسِيرهَا وَلَوْ كَانَتْ عَرَبِيَّة لَعَرَفَتْهَا الصَّحَابَة، وَلَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى سُؤَاله عَنْهَا فَهَذَا هُوَ الْمُخْتَار فِي بَيَان هَذِهِ اللَّفْظَة .

(**يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا**) قال عياض: زيادة الكبد وزائدتها: هي القطعة المنفردة المتعلقة بها، وهي أطيبه، ولهذا خص بأكلها السبعون ألفاً، ولعلهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل، ويحتمل أن يكون عبر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر.

١ –الحديث دليل على بيان عجيب صنع الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، حيث يجعل الأرض التي نشاهدها خبزة يأكل أهل الجنّة منها.

قال ابن عثيمين : هذه من قدرة الله عز وجل، هذه الأرض التي الآن طين ورمل وغيرها، يوم القيامة تكون من أحسن الأطعمة، بل من الأطعمة التي لم نر مثلها، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ، تكون هذه نزلاً لأهل الجنة، يوم القيامة .

٢-بيان شيء من نعيم الجنة .

٣- إخبارُه ﷺ عن الغيبِ، وهو مِن عَلاماتِ النُّبوَّةِ.

٤-أنه ينبغي للمُسلِمِ أن يأخُذَ الحقَّ ممَّن قاله، ولا ينظُرَ إلى أهليَّةِ قائِلِه، إذا لم يظهَرْ منه ما يرُدُّه.

٥- بيانُ عَجيبِ صُنعِ اللهِ سُبحانَه وَتَعَالَى؛ حيث يجعَلُ الأرضَ التي نشاهِدُها خُبزةً يأكُلُ أهلُ الجنَّةِ منها! .

٦-إثبات اسم الجبار اسماً من أسماء الله .

والجبار له ثلاث معان :

الأول : جبر القوة ، فهو سبحانه وتعالى الجبار ، الذي يقهر الجبابرة ، ويغلبهم بجبروته وعظمته ، فكل جبار وإن عظم فهو تحت قهر الله عز وجل وجبروته في يده وقبضته .

الثاني : جبر الرحمة ، فإنه سبحانه يجبر الضعيف بالغِنى والقوة ، ويجبر الكسير بالسلامة ، ويجبر المنكسرة قلوبهم بإزالة كسرها ، وإحلال الفرج والطمأنينة فيها ؛ وما يحصل لهم من الثواب والعاقبة الحميدة إذا صبروا على ذلك من أجله .

الثالث : جبر العلو فإنه سبحانه فوق خلقه عالٍ عليهم ، وهو مع علوه قريب منهم يسمع أقوالهم ، ويرى أفعالهم ، ويعلم ما توسوس به نفوسهم .

قال ابن القيم في النونية في معنى الجبار :

وكذلك الجبار في أوصافه ... والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرة فالجبر منه دان

والثاني جبر القهر بالعز الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسان

وله مسمى ثالث وهو العلو ... فليس يدنو منه إنسان

من قولهم جبارة للنخلة العلـ ... يا التي فاقت كل بنان

قال السعدي رحمه الله: الجبار هو بمعنى: العلي الأعلى وبمعنى القهار وبمعنى الرؤوف وهو الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر المريض والمبتلى، ويجبر جبرًا خاصًا قلوب المنكسرين لجلاله، الخاضعين لكماله، الراجين لفضله ونواله بما يفيضه على قلوبهم من المحبة وأنواع المعارف الربانية، والفتوحات الإلهية والهداية والإرشاد والتوفيق والسداد . انتهى .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدعُو بَينَ السَّجدَتَينِ فَيقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِر لِي وارْحَمني واجْبُرْنِي وارْفَعني وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارزُقْنِي .

فكَانَ يَدعُو بِمَا دَلَّ عَلَيهِ اسمُ (الجَبَّارِ) جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ ابنُ الأَثِيرِ: وَاجبُرنِي أَيْ: أغْنِنِي، مَنْ جَبَرَ اللهُ مُصِيبَتَهُ: أَيْ: رَدَّ عَلَيهِ مَا ذَهَبَ مِنهُ وَعَوَّضَهُ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَبْرِ الكَسر .

وَكَانَ يُعَظِّمُ رَبَّهُ أَيَضًا بِهَذَا الاسمِ فِي الصَّلاةِ فِي الرُّكُوعِ والسُّجُودِ .

كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوْفِ بنِ مَالِكٍ الأشجَعِيّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الجَبروتِ والملكوتِ والكِبْرياءِ والعَظَمَةِ. وَفِي سُجُوده مثل ذلك .

أن الجبروت والقهر في حق المخلوق مذموم .

قال تعالى (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار) لكن في حق الله محمود؛ لأن جبروته وقهره حق، أما الخلق فموصوفون بصفات النقص، مقهورون ضعفاء، والحق سبحانه وتعالى آمرٌ غير مأمور، قاهرٌ غير مقهور، فعالٌ لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

أن الله تعالى: جبروته رحمة وعدل .

لأنه بجبروته قهر الجبابرة وأذل الأكاسرة والفراعنة، وأنصف المظلومين من الظلمة، ونصر جنده على المعاندين والكفرة الفجرة.

وقد توعَّد الله الجبابرة بالعذاب والنكال؛ قال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِي ﷺ (لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَسْلَمَ) .

[٣٩٤١] .

==========

(**لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا**) أي: على ظهر الأرض، ويَحْتَمل أن يكون المراد: ظهر المدينة، لكنه بعيد، والأول هو الظاهر .

(**يَهُودِي إِلاَّ أَسْلَمَ**) وفي رواية الإسماعيليّ (لم يبق يهوديّ إلا أسلم) .

١–قال النووي : قَالَ صَاحِب التَّحْرِير : الْمُرَاد عَشْرَة مِنْ أَحْبَارهمْ . (شرح مسلم) .

والمعنى : أراد النبي ﷺ بالعشرة الذين كانوا هناك من الأحبار، فإنهم كانوا يعرفونه في التوراة، فلو أقروا لعوامهم بأنه النبي الموعود؛ الذي أنزل الله شأنه على موسى بن عمران لا شك أنّ أحداً لن يتخلّف بعدهم لأن هؤلاء عُمدتهم، في الدين، وأما بعد تكذيب أولئك قلّدهم من غاب عنهم.

وقيل المعنى: لو آمن بي عشرة قبل قدومي المدينة، أو عقب قدومي، أو عشرة من رؤسائهم لتابعهم الكل، ويتعين التقييد بذلك، وإلا فقد آمن به اليهود أكثر من عشرة أضعافاً مضاعفة.

٢–اليهود سالكون للتقليد لأحبارهم، لا متّبعون للدليل.

٣– أراد ﷺ أنّ إِثْمَ المخالفين لي منهم في رقاب أولئك العشرة؛ لكونهم رؤساء القوم، وهذا على معنى قوله ﷺ لهرقل: (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين).

٤– خطورة التقليد ، وخاصة التقليد المقيت الذي يؤدي إلى الشرّ.

٥– معنى كلمة اليهود: مشتق من التهوّد وهو التوبة ، أو الميل ،أو الرجوع من شيء إلى ضده. يقال هاد إذا تاب، أو مال، أو رجع. سموا به لأنهم تابوا عن عبادة العجل ، أو مالوا من الحق إلى الباطل ، أو رجعوا من الخير إلى الشر ،وخلطوا اعتقادهم.

٦– حرص النبي ﷺ واهتمامه بهداية اليهود خاصّة ، لأنّهم كانوا من سكّان المدينة.

٧– أشدّ الناس عداوة هم اليهود ، كما قال سبحانه (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) .

٥ – باب سُؤَالِ الْيَهُودِ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرُّوحِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ إِذْ مَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ فَقَالُوا مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ لاَ يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا سَلُوهُ فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فَسَأَلَهُ عَنِ الرُّوحِ – قَالَ – فَأَسْكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ – قَالَ – فَقُمْتُ مَكَانِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) .

[خ : ٤٧٢١] .

==========

(**في حرث**) وفي رواية (في خِرَبِ الْمَدِينَةِ) بكسر الخاء وفتح الراء، والخرب ضد العامر.

(عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ) أي: عصا من جريد النخل.

١–اختلف العلماء في نزول قوله تعالى (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

القول الأول: ما جاء في سؤال اليهود للنبي ﷺ وهو في المدينة.

كما في حديث الباب.

القول الثاني: أنها نزلت في مكة، حينما طلبت قريش من اليهود شيئاً يسألون عنه النبي.

فعن ابن عباس. قال (قالت قريش لليهود، أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) رواه الترمذي وأحمد.

وقد أورد أكثر المفسرين حديث ابن مسعود وجعلوه سبب نزولها: كالطبري، والبغوي، وابن العربي، وابن عطية، والقرطبي.

قال ابن كثير لما ساق حديث ابن مسعود (وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه وهي هذه الآية: (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ ...) ثم قال: ومما يدل على نزول هذه الآية مكة: عن ابن عباس قال (قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا). (تفسير ابن كثير)

وقال الحافظ ابن حجر في حديث الباب: وهذا يدل على أن نزول الآية وقع بالمدينة لكن روى الترمذي .. ثم ساق حديث ابن عباس، ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك، وإن ساغ هذا وإلا فما في الصحيح أصح.

وذهب بعض العلماء إلى تعدد النزول.

قال الإمام الزركشي: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ... ولذلك أمثلة، منها: ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه الآية في سورة (سبحان) أي الإسراء وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة، وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب، كما سبق بيانه.

ولا يقال: كيف يتعدد النزول بالآية الواحدة، وهو تحصيل حاصل؟

فالجواب: أن لذلك فائدة جليلة، والحكمة من هذا – كما قال الزركشي – أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه.

٢–وقد اختلف العلماء ما المراد بالروح هنا:

فقيل: أن المراد أرواح بني آدم، وقيل: المراد بالروح هنا جبريل، وقيل: المراد به ههنا ملك عظيم يقدر المخلوقات كلها.

قال الرازي: للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة.

وقال ابن جزي: والروح هنا عند الجمهور هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه: النفس وقيل: الروح هنا جبريل، وقيل: القرآن، والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك.

وقال الشوكاني: قد اختلف الناس في الروح المسئول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين.

وهذا قول جلة المفسرين: فقد اختاره ابن عطية، واستظهره أبو حيان، والجصاص، وأبو السعود.

٣–أطلق الروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي:

كقوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا).

وقوله (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين.

كما قال (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ).

الثالث: جبريل:

كقوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ).

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله.

الخامس: المسيح عيسى ابن مريم:

قال تعالى (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ).

٤ – حرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ .

٥ – تواضعه ﷺ .

٦ – معرفة اليهود وأهل الكتاب بالنبي ﷺ .

٧ – أن العالم مهما أوتي من علم فإنه قليل جداً في علم الله تعالى.

٨ – أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

٩ – عدم الخوض فيما لا علم للإنسان به.

١٠–سؤال اليهود للنبي ﷺ عن الروح تعنتاً وتعجيزاً.

١١– أن الروح من شأن الله وأمره الكوني.

١٢–دفاع الله تعالى عن نبيه.

١٣– على الإنسان أن يسأل عما ينفعه.

١٤- عموم علم الله تعالى لكل شيء.

١٥- أن علم المخلوق قليل، فهو يسبق بجهل ويلحق بنسيان.

عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ خَبَّابٍ قَالَ (كَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ فَقَالَ لِي لَنْ أَقْضِيَكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ - قَالَ - فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ. قَالَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) إِلَى قَوْلِهِ (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) .

[خ : ٤٧٣٥] .

==========

(**عَنْ مَسْرُوقٍ**) بن الأجدع .

(**عَنْ خَبَّابٍ**) ابن الأرتّ التميمي، أبو عبد الله الصحابيّ الشهير، من السابقين إلى الإسلام، وكان يُعَذَّب في الله .

(**قَالَ** : **كَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ**) السَّهْميّ هو والد عمرو بن العاص الصحابيّ المشهور، وكان له قَدْر في الجاهلية، ولم يوفق للإسلام،

(**دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ**) أي: فأتيت العاص أطلب منه دَيني .

(**فَقَالَ**) **العاص بن وائل** .

(**لَنْ أَقْضِيَكَ**) أي : لا أعطيك حقك .

(**حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ**) ﷺ .

(**قَالَ**) خباب .

(**فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ**) قال في "الفتح": مفهومه أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يُرِد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يُتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبداً، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به، وبهذا التقرير يندفع إيراد من استشكل قوله هذا، فقال: عَلّق الكفر، ومن عَلّق الكفر كفر.

(**قَالَ**) **العاص بن وائل** .

(**وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ**) فقال له خبّاب: نعم ، فقال العاص : استهزاء :

(**فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ**) وفي رواية الترمذيّ (فقلت: لا حتى تموت، ثم تبعث"، قال: وإني لميت، ثم مبعوث؟ فقلت: نعم، فقال: إن لي هنالك مالاً وولداً، فأقضيك، فنزلت: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ) .

١-تفسير قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) إِلَى قَوْلِهِ (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) .

(**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا**) أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا محمَّدُ- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطيَنِّي اللهُ في الآخرةِ -على تقديرِ قيامِها- مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ؟!.

(**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ**) أي: هل أطلع على الغيب، الذي تفرد بعلمه علام الغيوب؟

(**أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**) أي: أم أعطاه الله عهدا بذلك، فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين؟

واختار هذا المعنى: البيضاوي، وابنُ كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

وقيل: اتخاذُ العهدِ معناه بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ.

واختاره: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والثعالبي، والسعدي. .

قال ابنُ جرير: (أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) يقولُ: أم آمنَ باللهِ، وعَمِلَ بما أُمِرَ به، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدًا أن يؤتيَه ما يقولُ مِن المالِ والولَدِ؟!.

وقال ابن عطية: واتخاذ العهد معناه بالإيمان والأعمال الصالحة.

وقال السعدي: وإما أن يكون متخذا عهدا عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله.

فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: (كَلا).

(**كَلاَّ**) حرف ردع وزجر له وتكذيب له، ونفي لما يقول.

(**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**) أي: سنكتب قوله من كفر وكذب، ومن تمنٍ باطل بقوله (لأوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا).

قال الشنقيطي: ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أنه يكتب ما يقول هذا الكفار ذكر نحوه في مواضع متعددة من كتابه:

كقوله تعالى (قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ).

وقوله تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ).

وقوله تعالى (هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

وقوله تعالى (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ).

وقوله تعالى (سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحريق).

(**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**) أي: ونزيد له من العذاب زيادة عظيمة.

قال ابن عطية: ومد العذاب هو إطالته وتعظيمه.

قال البقاعي: (ونمد له من العذاب مداً) باستدراجه بأسبابه من كثرة النعم من الأموال والأولاد المحببة له في الدنيا، المعذبة له فيها، بالكدح في جمعها والمخاصمة عليها الموجبة له التمادي في الكفر الموجب لعذاب الآخرة، وإتيان بعضه في إثر بعض (إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون).

(**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ**) أيْ: مَا يَقُولُ إِنَّهُ يُؤْتَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، أَيْ: نَسْلُبُهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَا أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ بِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُ.

وَقِيلَ: نَحْرِمُهُ مَا تَمَنَّاهُ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ فِي الْآخِرَةِ، وَنَجْعَلُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَدُلُّ لِلْمَعْنَى الْأَوَّلِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) وَقَوْلُهُ (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُون). (أضواء البيان)

قال الزجاج: المعنى: سنسلبه المال والولد، ونجعله لغيره.

وقال البقاعي: (ونرثه) بموته عن جميع ذلك.

وقال الشوكاني: (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) أي: نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه.

(**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**) أي: ويأتينا وحيدا لا مال معه ولا ولد، ولا نصير له ولا سند.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

وَقَالَ تَعَالَى (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).

٢-وجوب الإيمان بالبعث .

والإيمان بالبعث أحد أركان الإيمان الستة .

وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقوم الناس لرب العالمين .

وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى: آيات صريحة في إثبات ذلك:

قال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ). وقال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ). وقال تعالى: (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ). وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ). وقال تعالى: (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد:

فقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ).

وقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وذم الله المكذبين بالمعاد:

فقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

وقال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً).

الطريقة الثانية: التذكير بنشأة الإنسان الأولى:

قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ).

وقال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

الطريقة الثالثة: الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات:

قال تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الطريقة الرابعة: الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الطريقة الخامسة: تنزيه الله سبحانه عن العبث.

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث، فما فائدة الأوامر والنواهي.

قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ).

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً). أي: لا يؤمر ولا ينهى، وقيل لا يبعث.

الطريقة السادسة: تنزيه الله عن الظلم:

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه، والكافر لا يعرف ربه أصلاً.

قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ).

الطريقة السابعة: ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث.

كما في قصة قتيل بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

وقصة أصحاب الكهف، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، قال تعالى في قصتهم: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...).

ومن كذب بالبعث فقد كفر :

لقوله تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) .

وقال تعالى (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

وقال تعالى (الذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) .

وإنكار البعث تكذيب لله :

عن عباس عن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي: فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً) رواه البخاري .

أول من يبعث نبينا ﷺ .

عنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ) متفق عليه .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، قَالَ : ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ) متفق عليه .

في رواية للبخاري (النَّاس يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ ...) .

بعث الناس يوم القيامة يكون لأرواحهم وأجسادهم معًا .

ومن قرأ القرآن الكريم وتدبره علم هذا يقينا ، فجسد الإنسان الذي كان في الدنيا يركب مرة أخرى يوم القيامة.

كما في قوله تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا* وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا) .

وكقوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) . وهذا أمر مجمع عليه.

قال ابن القطان الفاسي رحمه الله تعالى: وأجمعوا على أن الأجساد التي أطاعت وعصت هي التي تبعث يوم القيامة، وكذلك الجلود التي كانت في الدنيا والألسنة والأيدي والأرجل هي التي تشهد عليهم يوم القيامة.

وأجمعوا على أن الله يعيد الخلق كما بدأهم؛ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة " انتهى من "الإقناع" (١/٥١).

٦ – باب فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) الآيَةَ.

عن أَنَس بْن مَالِك قال (قَالَ أَبُو جَهْلٍ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. فَنَزَلَتْ (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

[خ : ٤٦٤٨] .

==========

(**قَالَ أَبُو جَهْلٍ**) فرعون هذه الأمة .

(**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ**) أي : إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد ﷺ هو الحق .

(**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ**) قالوا هذه المقالة مبالغةً في الجحود، والإنكار .

١–قوله تعالى (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

هذا من كثرة جهلهم وعُتُوّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة.

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) .

وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) وقال هؤلاء (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

(**ومَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)** .

جعل الله لهم أمانين من العذاب:

أحد الأمانين: وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهو قوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) لأن الله (جل وعلا) لم ينزل العذاب بأمة ونبيها موجود فيها، بل إذا أراد إنزال العذاب بهم أمر نبيهم أن يخرج عنهم فينزل عليهم العذاب بعد أن فارقهم.

قال ابن عطية : وأجمع المتأولون على أن معنى قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة ونبيها بين أظهرها، فما كان ليعذب هذه وأنت فيهم، بل كرامتك لديه أعظم.

الأمان الثاني: هو المذكور في قوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون).

وقد اختلف العلماء في هذا الاستغفار على أقوال:

قيل: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد بعضهم.

وقيل: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار، وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم.

وقيل: (وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) أي: لو استغفروا لم يعذبوا، فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم، أي لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله.

وقيل : أن معنى قوله **(وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)** أي يسلمون أي وما كان الله معذبهم وقد سبق في عمله أن منهم من يسلم ويستغفر الله من كفره وعلى هذا القول فقوله: (وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) في الذين سبقت لهم الشقاوة كأبي جهل وأصحابه الذين عذبوا بالقتل يوم بدر ونقل ابن جرير معنى هذا القول عن عكرمة ومجاهد.

٢- دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب لقوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

فأخبرَ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مُسْتَغْفِرًا؛ لِأَنَّ الِاسْتِغْفَارَ يَمْحُو الذَّنْبَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْعَذَابِ فَيَنْدَفِعُ الْعَذَابُ .

والاستغفار له فوائد كثيرة:

أولاً: تكفير السيئات ورفع الدرجات.

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً).

وفي الحديث القدسي (قال الله: من يستغفرني فأغفر له ..) متفق عليه.

ثانياً: سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين.

قال تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً).

ثالثاً: سبب لحصول القوة في البدن.

قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

رابعاً: سبب لدفع المصائب ورفع البلايا.

قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

خامساً: سبب لبياض القلب.

قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه) رواه أحمد.

من أقوال السلف:

قال بعض العلماء: طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً.

وكان ابن عمر: يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول: إنكم لم تذنبوا.

وقال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال رياح القيسي: لي نيف وأربعون ذنباً، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة.

وقال الحسن: لا تملُّوا من الاستغفار.

وقال بكر المزَني: إن أعمال بني آدم تُرفع فإذا رُفعت صحيفةٌ فيها استغفار رُفعت بيضاء، وإذا رُفعت ليس فيها استغفار رفعت سوداء.

وعن الحسن قال: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طُرُقِكم، وفي أسواقكم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة.

قال لقمان لابنه: أيْ بُنَيَّ عوِّد لسانك: اللهم اغفر لي؛ فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً.

ورئي عمر بن عبد العزيز في النوم فقيل له: ما وجدت أفضل؟ قال: الاستغفار.

فائدة: قال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ).

قال السعدي: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك.

٣-كرامة النبي ﷺ على ربه.

٤ - شدة عتو وعناد كفار قريش.

٥ - أن وجود النبي ﷺ أمان من العذاب.

٦ - أن من فضائل الاستغفار أنه لرفع العذاب وعدم وقوعه.

٧ - الحث على الاستغفار.

٧ - باب قَوْلِهِ (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قَالَ أَبُو جَهْلٍ هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ قَالَ فَقِيلَ نَعَمْ. فَقَالَ وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ - قَالَ - فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّى زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ - قَالَ - فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ - قَالَ - فَقِيلَ لَهُ مَا لَكَ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا ». قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لاَ نَدْرِى فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ) .

===========

(**قَالَ أَبُو جَهْلٍ**) اللعين ، فرعون هذه الأمة .

(**هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ**) أيْ : يَسْجُد وَيُلْصِق وَجْهه بِالْعَفَرِ وَهُوَ التُّرَاب .

(**فَقَالَ وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى**) أقسم بصنميه .

(**لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ**) أي: يصلي، ويعفّر وجهه لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

(**لأَطَأَنَّ**) لأدوسن .

(**أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ**) أي: لأمرّغنّ (وَجْهَهُ) الشريف الذي أكرمه الله تعالى على جمي ع الوجوه من كلّ شريف ﷺ في التراب .

(**إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ**) أي : رَجَعَ عَلَى عَقِبَيْهِ يَمْشِي عَلَى وَرَائِهِ .

(**وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ**) أي: يَحْذَر بهما، ويدفع شيئاً بسببهما.

(**فَقِيلَ لَهُ مَا لَكَ**) أي فَقِيل لأبي جهل، (مَا لَكَ؟)؛ أي: أيّ شيء حصلك على الرجوع قهقرى .

(**فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً**) بفتحٍ، فسكون؛ أي: خوفاً وأمراً شديداً .
(**وَأَجْنِحَةً**) وهي هنا للملائكة الذين يحفظونه .

١-في الآيات مع الحديث بيان اعتداء أبي جهل على النبي ﷺ بطريقين:
الأول: تهديده للنبي ﷺ بأن إذا صلى عند الكعبة أن يطأ رقبته، وهذا فيه دلالة على جهله وعلوه واستكباره وجرأته على الله وعلى رسوله ﷺ .
الثاني: عندما رأى النبي ﷺ يصلي جاء لينفذ تهديده، وهذا كفر زائد على كفره الذي هو فيه.
٢-هذا الحديث من جملة آياته ﷺ وعلامات نبوته؛ ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته من أبي جهل وغيره ممن أراد ضره.
وجاء دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ بطرق عديدة:
أ-بالفعل: حيث أدخل الله تعالى رعباً شديداً في قلبه .
وذلك عندما رأى -أبو جهل- ما أخبر به قومه عندما سألوه عن سبب تراجعه عن إلقاء الحجر على ظهر النبي ﷺ قائلاً: (إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً) وكان ذلك التخويف من ملائكة الله تعالى له كما أخبر ﷺ عن ذلك بقوله (لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا).
ب- دافع الله تعالى عن نبيه ﷺ بالقول .
حيث أنزل آيات تبين حال أبي جهل وما هو عليه من الكبر والطغيان اللذين لا يلقيان به حيث قابل النعم بالكفران، وهذا واضح في قوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى) .
ج- بين الله تعالى جهل أبي جهل حيث استفهمه بقوله (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى) .
والمعنى هل يستحق مريد الصلاة أن يُنهى عنها ويهدد؟ متى كانت الصلاة من الأعمال الفاسدة التي لا يجوز فعلها؟ أم أنه الجهل والكفر والطغيان.
د- وعظه وتذكيره بأن ما يقوم به من نهي النبي ﷺ عن الصلاة لا يجوز بل هو أكبر الفجور فالنهي في حده ذاته فجور وكونه في الحرم فجور آخر وكونه نهي لنبي الله تعالى فجور يفوق كل ما سبق .
وقال ابن كثير (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى) نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى) أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى) بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته.
هـ- ومن دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ ما بينه من كون هذا العدو المتجبر سيموت على كفره ولن يدخل الإسلام قبله يومًا ما بل مأواه النار وبئس المصير فقال تعالى (أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) .
قال ابن كثير رحمه الله تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء.
٣-روى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ : أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا ؟ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَزَبَرَهُ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا بِهَا نَادٍ أَكْثَرُ مِنِّي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَوَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللَّه) .

دلت هذه النصوص على أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة أول الدعوة، وأن أبا جهل لعنه الله كان يتغيظ عليه في ذلك وينهاه ويتوعده، فأنزل الله هذه الآيات .

فالصلاة كانت مشروعة قبل "الإسراء"، كما دل على ذلك سورة العلق، والأحاديث المذكورة في سبب نزولها، ودل عليه أيضاً سورة المزمل ، وما فيها من وصف قيام النبي ﷺ في الليل ، هو وطائفة ممن معه من المؤمنين ، وسورة المزمل من أوائل ما نزل ، ودلت عليه نصوص كثيرة ، ووقائع عديدة في سيرة النبي ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : كَانَ ﷺ قَبْل الْإِسْرَاء يُصَلِّي قَطْعًا ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابه ؛ لَكِنْ اُخْتُلِفَ هَلْ اُفْتُرِضَ قَبْل الْخَمْس شَيْء مِنْ الصَّلَاة أَمْ لَا ؟ .

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) أَصْل وُجُوبِ الصَّلاَةِ كَانَ فِي مَكَّةَ فِي أَوَّل الإْسْلاَمِ؛ لِوُجُودِ الآْيَاتِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي بِدَايَةِ الرِّسَالَةِ تَحُثُّ عَلَيْهَا. وَأَمَّا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ بِالصُّورَةِ الْمَعْهُودَةِ فَإِنَّهَا فُرِضَتْ لَيْلَةَ الإْسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ .

٤-الإيمان بالملائكة وأن لها أجنحة.

٥-أن الله -سبحانه وتعالى- يحمي رسوله من كيد الكفار.

٦-في الحديث إشارة إلى ما لاقاه النبي ﷺ من أذى في الفترة المكية .

٧-أمر الله تعالى نبيه النبي ﷺ بل (وحضه على المداومة على الصلاة في الكعبة، وعدم المبالاة بنهي الناهين عن ذلك، فإنهم أحقر من أن يفعلوا شيئًا وذلك بقوله تعالى (كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب) .

٨-في قوله تعالى (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) أي: كلا ليس الأمر كما قال هذا المغرور من أن أهله وعشيرته سينصرونه، وسيقفون إلى جانبه في منعك أيها الرسول الكريم -من الصلاة، فإنهم وغيرهم أعجز من أن يفعلوا ذلك، وعليك- أيها الرسول الكريم- أن تمضى في طريقك وأن تواظب على أداء الصلاة في المكان الذي تختاره، ولا تطع هذا الشقي، فإنه جاهل مغرور، واسجد لربك وتقرب إليه تعالى بالعبادة والطاعة، وداوم على لك .

٩-في قوله تعالى (عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ) دون قوله نبيه أو رسوله (عبداً) دلالة على أنه لا يوجد أحد حقق العبودية كما حققها هو ﷺ كما أشار إليه الرازي رحمه الله تعالى بقوله (كأنه تعالى يقول: إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته).

٨ – باب الدُّخَانِ

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ (كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ جُلُوسًا وَهُوَ مُضْطَجِعٌ بَيْنَنَا فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَجَلَسَ وَهُوَ غَضْبَانُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا فَقَالَ « اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ ». قَالَ فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ أَحَدُهُمْ فَيَرَى كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ – قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) إِلَى قَوْلِهِ (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ). قَالَ أَفَيُكْشَفُ عَذَابُ الآخِرَةِ (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَآيَةُ الرُّومِ) .

[خ : ٤٧٧٣] .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَاللِّزَامُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَالْقَمَرُ) .

[خ : ٤٨٠٩] .

==========

(**عَنْ مَسْرُوقٍ**) بن الأجدغ .

(**قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ**) ابن مسعود .

(**فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ**) كنية ابن مسعود .

(**إِنَّ قَاصًّا**) أي: واعظاً، يعظ الناس، ويقصّ عليهم القصص .

(**عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ**) باب كندة هو باب الكوفة .

(**يَقُصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ**) أي : العلامة التي تأتي للإنذار بوقوع القيامة، التي ذكرها الله تعالى في قوله (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) .

(**تَجِيءُ**) فيما بعد .

(**فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ**) أي: تقبض أرواحهم، وتُهلكهم .

(**وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ**) أي: من ذلك الدخان .

(**كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ**) أي: مثل صفة الزكام، بالضمّ المرض المعروف.

(**إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ**) أي : مشركي قريش .

(**إِدْبَارًا**) وإعراضاً عن قبول الإسلام، وفي الرواية الآتية (إِنَّمَا كَانَ هَذَا أَنَّ قُرَيْشاً لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف) .

(**فَقَالَ : اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ**) السنين السبع التي كانت في زمن يوسف عليه السلام، وهي السبع الشّداد التي أصابهم فيها القحط، وهو ما بيّنه الله -عَزَّ وَجَلَّ- قوله (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أو يكون المعنى: المدعوّ عليهم قحط كقحط يوسف عليه السلام .

(**قَالَ فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيءٍ**) السنة الْقَحْط وَالْجَدْب، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آل فِرْعَوْن بِالسِّنِينَ) وَ (حَصَتْ) بِحَاءٍ وَصَاد مُشَدَّدَة مُهْمَلَتَيْنِ، أَيْ : اِسْتَأْصَلَتْهُ .

(**حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ**) زاد في رواية البخاريّ (والْجِيَف) بكسر الجيم ، وفتح الياء: جمع الجيفة، وهي جُثّة الميت.

(**وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ أَحَدُهُمْ فَيَرَى كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ**) أي: مثل صفة الدخان، وذلك لضَعْف بصره بسبب الجوع، فيُخيّل إليه أنه رأى دخاناً، وليس بدخان، وإنما هو خيال فقط، قال ابن مسعود رضي الله عنه: فهذا هو معنى الدخان الذي ذكره الله تعالى في كتابه، لا ما يزعمه القاصّ.

١-في هذا الحديث : أن هذا الرجل القاص يقول : إن آية الدخان لم تأت بعد ، وإنما تأتي عند قرب القيامة ، فغضب ابن مسعود وبيّن أن الدخان مضى وأنه ما أصاب قريش حينما عليهم الرسول ﷺ .

وقد اختلف العلماء هل آية الدخان مضت أم لم تأت بعد ؟ على أقوال :

القول الأول : أن الدخان مضى وانقضى ، وهو ما أصاب مشركي مكة من الجهد والجوع حتي أصبح أحدهم إذا نظر إلى السماء يرى كهيئة الدخان.

وعلى رأس القائلين بهذا ابن مسعود رضي الله عنه كما في حديث الباب .

وتبعه على ذلك جماعة من السلف منهم أبو العالية ، وإبراهيم النخعي ، ومجاهد ، والضحاك ، وعطية العوفي .

ليس لهؤلاء ما يستدلون به سوى الآيات في سورة الدخان فقالوا: إن سياق الآيات يدل على أن المراد بها ما أصاب مشركي مكة عندما دعا عليهم الرسول ﷺ .

وبهذا جزم ابن مسعود رضي الله عنه -كما في حديث الباب- وغضب واشتد نكيره على من قال بخلاف هذا، وقال رضي الله عنه مستنكرًا: "أفيُكشف عذاب الآخرة" أي إن كشف العذاب ثم عودهم لما هم عليه لا يكون في الآخرة وإنما يكون في الدنيا.

«وعلى هذا القول :

يكون معني قوله تعالى حكاية عن المشركين (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أن الكافرين الذين أصابَهم ذلك الْجهد والجوع يدعون ربَّهم أن يكشفه عنهم ويقولون: إنك إن كشفته عنا آمنا بك وعبدناك، فيرد الله تعالى عليهم بقوله (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) أي إنكم أيها المشركون إذا كشفت عنكم ما بكم من ضر عدتم إلى ضلالكم وغيّكم .

كما أنه على هذا القول يكون المراد بالبطشة الكبرى في قوله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) بطشة الله تعالى بمشركي قريش يوم بدر كما ذهب إلى ذلك ابن مسعود رضي الله عنه، وهو قول جماعة من السلف كابن عباس وأبي بن كعب رضي الله عنهم ومسروق ومجاهد وأبي العالية والضحاك وغيرهم.

القول الثاني : أنها لم تأت بعد وهي من علامات الساعة الكبرى .

وهذا مروي عن ابن عباس وابن عمر وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهم والحسن وابن أبي مليكة .

ورجح هذا القول: القرطبي، وابن القيم، وانتصر له ابن كثير، كما ذهب إليه صلاح الدين العلائي وجمعٌ من أهل العلم عليهم رحمة الله.

أ-عن حُذيفة بن أسيد الغفاري قال: (اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: "ما تذاكرون؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: "إنَّها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) رواه مسلم .

قال النووي : هَذَا الْحَدِيث يُؤَيِّد قَوْل مَنْ قَالَ إِنَّ الدُّخَان دُخَان يَأْخُذ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّار ، وَيَأْخُذ الْمُؤْمِن مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَام ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بَعْد ، وَإِنَّمَا يَكُون قَرِيبًا مِنْ قِيَام السَّاعَة .

ب-وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (بادروا بالأعمال ستًّا طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة) رواه مسلم .

قالوا: فهذان الحديثان مرفوعان، والمرفوع مقدم على الموقوف.

وقال ابن كثير بعدما ساق أثر ابن عباس والذي مفاده أن الدخان لم يأت بعد، قال: "هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة .

وقال رحمه الله : والحَديثانِ في صَحيحِ مُسْلِمٍ مَرفوعانِ، والمرفوعُ مُقَدَّمٌ على كُلِّ مَوقوفٍ، وفي ظاهِرِ القُرآنِ ما يَدُلُّ على وُجودِ دُخَانٍ مِنَ السَّماءِ يَغشى النَّاسَ، وهذا أمرٌ مُحَقَّقٌ عامٌّ، ولَيسَ كما رُوِيَ عَنِ ابنِ مَسعودٍ أنَّه خيالٌ في أعيُنِ قُرَيشٍ من شِدَّةِ الجوعِ. قال تعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) أي: ظاهِرٍ بيِّنٍ واضِحٍ جِليٍّ، لَيسَ خيالًا من شِدَّةِ الجوعِ (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَّابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) . أي: يُنادي أهلُ ذلك الزَّمانِ رَبَّهم بهذا الدُّعاءِ يَسألونَ كشفَ هَذِه الشِّدَّةِ عَنهم، فإنَّهم قَد آمَنوا، وأيقَنوا بما وُعِدوا به مِنَ الأمورِ الغَيبيَّةِ الكائنةِ بَعدَ ذلك يَومَ القيامةِ، وهذا دَليلٌ على أنَّ هذا أمرٌ يَكونُ قَبلَ يَومِ القيامةِ؛ حَيثُ يُمكِنُ رَفعُه، ويُمكِنُ استِدراكُ التَّوبةِ والإنابةِ، والله أعلَمُ .

قال السفاريني : قال العلماء: آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) وأما تفسير ابن مسعود هذه الآية بما حصل لقريش فقد قال عنه ابن كثير: "هذا التفسير غريب جدًّا، ولم يُنقل مثله عن أحد من الصحابة غيره .

وعلى هذا القول تكون البطشة الكبرى -في قوله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)يوم القيامة كما هو مروي عن ابن عباس والحسن البصري وعكرمة واختاره الزجاج وابن كثير عليهم رحمة الله.

٢-ذهب بعض العلماء إلى الجمع بين النصوص :

وإليه ذهب الطحاوي وأبو الخطاب بن دحية وأشار إليه الطبري واحتمله النووي :

وهو حمل ما جاء في النصوص على أنَّهما دخانان:

أحدهما: ما أصاب قريش عندما دعا عليهم النبي ﷺ كما جاء ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه وهذا قد مضى وانتهى .

والثاني: يكون من علامات الساعة قبل قيامها كما جاء ذلك في حديث حذيفة وأبي هريرة رضى الله عنهما.

قال الطحاوي : الدخان المذكور في أحاديث ابن مسعود رضى الله عنه غير الدخان المذكور في حديثي حذيفة وأبي هريرة .

وقال الطبري رحمه الله: "وبعد، فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلًّا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ .

وقال النووي : ويُحتمل أنَّهما دخانان للجمع بين هذه الآثار .

٣- قوله (خمس قد مضين : ...) .

لِلقيامةِ عَلاماتٌ دالَّةٌ عليها؛ مِنها عَلاماتٌ صُغرى ومنها عَلاماتٌ كُبرى، وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ ﷺ بعَلاماتٍ ظهَرَتْ وانتهَتْ .

الدخان : قال الله تعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) .

وقد تقدم الخلاف هل مضت أم لا .

القمر : يَقْصِدُ: انْشقاقَه .

قال الله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

الروم : يعني: انتصارَ الرُّومِ على الفُرْسِ .

قال الله تعالى (الم . غُلِبَتِ الرُّومُ) .

البطشة : وهي القَتلُ الَّذي حلَّ بِالمشركينَ يومَ بدرٍ .

قال الله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) .

اللزام : وهو الأَسْرُ والهَلَكةُ اللَّذانِ حلَّا بِقريشٍ في بَدْرٍ أيضًا، وقيل: هو القَحْطُ.

قال الله تعالى (فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا) .

٤-إثبات الساعة .

٥-إثبات أن للساعة علامات تدل على قربها .

٦-أن أشراط الساعة تنقسم إلى قسمين : صغرى وكبرى .

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ) قَالَ مَصَائِبُ الدُّنْيَا وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ أَوِ الدُّخَانُ. شُعْبَةُ الشَّاكُّ فِي الْبَطْشَةِ أَوِ الدُّخَانِ) .

==========

١-قوله تعالى (**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى**) قال : مصائب الدنيا .

اختلف في المراد بالعذاب الأدنى :

قيل : مصائب الدنيا وأسقامها .

وقيل : ما أصابهم يوم بدر .

وقيل : سنون أخذوا بها .

وقيل : مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها .

وقيل : عذاب القبر .

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم ، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذبهم بكل ذلك في الدنيا، بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم فيما وعدهم .

قال الشوكاني : قوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى) وهو عذاب الدنيا.

قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعي : هو مصائب الدنيا وأسقامها.

وقيل : الحدود.

وقيل : القتل بالسيف يوم بدر.

وقيل : سنين الجوع بمكة.

وقيل : عذاب القبر ، ولا مانع من الحمل على الجميع (دُونَ العذاب الأكبر) وهو عذاب الآخرة (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه.

وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال : إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر. (فتح القدير)

(**دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**) وهو عذاب النار .

قال ابن عطية : لا خلاف أنه عذاب الآخرة.

وقال القرطبي : ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) إليه ويتوبون من ذنوبهم ، كما قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

٩ – باب انْشِقَاقِ الْقَمَرِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِقَّتَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « اشْهَدُوا) .

[خ : ٣١٣٦] .

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ) .

[خ : ٣١٣٧] .

==========

(**انشَقَّ القمَر**) أي: انقسم وانفلَق إلى شقَّين؛ كما هو ظاهر الروايات الواردة عند البخاري ومسلم والترمذي في بعض ألفاظها.

(**على عهد رسول الله**) أي: زمن النبيّ ﷺ .

(**اشهدوا**) أي: على نبوَّتي أو معجزتي؛ من الشَّهادة، وقيل معناه: احضروا وانظروا؛ من الشُّهود .

١-الحديث دليل على أن من علامات نبوته ﷺ انشقاق القمر نصفين .

لهذه الأحاديث .

ولقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَر) .

قال عِياضٌ: آيةُ انشِقاقِ القَمَرِ مِن أمَّهاتِ آياتِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومُعْجِزاتِه، وقد رواها عِدَّةٌ من الصَّحابةِ، وظاهِرُ الآيةِ أيضًا وسياقُها، وما بعدها من تمادي قُرَيشٍ على التكذيبِ، يَشهدُ بصِحَّتِها؛ لِقَولِه: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .

وقال أبو العَبَّاسِ القُرطبيُّ: قَولُه: (انفلق القَمَرُ) أي: انشَقَّ نِصفَينِ، أي: وقع ذلك الانشِقاقُ على حقيقتِه، ووُجد ذلك بمكَّةَ بمِنًى، بعد أن سألت قُرَيشٌ رَسولَ اللهِ ﷺ آيةً، فأراهم انشِقاقَه، على نحوِ ما ذُكِر، ثُمَّ إنَّ عبدَ اللهِ بنَ مَسعودٍ أوضح كيفيَّةَ هذا

الانشِقاقِ حتى لم يَترُكْ لقائلٍ مَقالًا، فقال: وكانت فِلقةٌ وراء الجَبَلِ، وفِلقةٌ دُونَه. وفي رواية: فسَتَر الجَبَلُ فِلقةً، وكانت فِلقةٌ فوقَ الجبَلِ، ونحو ذلك...

وقد روى هذا الحديثَ جماعةٌ كثيرةٌ من الصَّحابةِ ﷺ؛ منهم: عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، وأنسٌ، وابنُ عَبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وحُذَيفةُ، وعَلِيٌّ، وجُبَيرُ بنُ مُطعِمٍ، وغيرُهم. وروى ذلك عن الصَّحابةِ أمثالُهم من التابعين، ثُمَّ كذلك ينقلُه الجَمُّ الغفيرُ والعددُ الكثيرُ، إلى أن انتهى ذلك إلينا، وفاضت أنوارُه علينا، وانضاف إلى ذلك ما جاء من ذلك في القُرآنِ المتواترِ عند كُلِّ إنسانٍ، فقد حصل بهذه المعْجِزةِ العِلْمُ اليقينُ الذي لا يشُكُّ فيه أحدٌ من العاقلين . (المفهم)

وقال ابن كثير : انشقاق القمر في زمان النبي ﷺ وجعل الله له آية على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به من الهدى ودين الحق، حيث كان ذلك وقت إشارته الكريمة.

وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام، وجاءت بذلك الاحاديث المتواترة، من طرق متعددة، تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها . (البداية والنهاية)

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وقد روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" من حديث ابن مسعود قال (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا)...

وعلى هذا جميع المفسرين، إلا أن قوما شذوا فقالوا: سينشق يوم القيامة. وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك .

وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع؛ ولأن قوله: (وَانْشَقَّ) لفظ ماض، وحمل لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجودا. وفي قوله: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) دليل على أنه قد كان ذلك . (زاد المسير)

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: أخبر -في سورة القمر- باقتراب الساعة وانشقاق القمر، وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد؛ ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار، وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة .

وقال السعدي في تفسير سورة القمر: يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل.

٢- قد سعى بعض الناس من القديم في التشكيك في هذه الحادثة، واستبعاد حصولها، وهـذا التشكيك لا أصل له عند كل عاقل؟

قال الخطابي رحمه الله تعالى: هذا شيء طلبه قوم خاصٌّ من أهل مكة على ما رواه أنس بن مالك، فأراهم النبي ﷺ ذلك ليلاً لأن القمر آية الليل، ولا سلطان له بالنهار، وأكثر الناس في الليل تنام ومُستكنُّون بأبنية وحجب، والأيقاظ البارزون منهم في البوادي والصَّحارى قد يتفق أن يكونوا في ذلك الوقت مشاغيل بما يُلهيهم من سمر وحديث ، وبما يهمّهم من شغل ومهنة ، ولا يجوز أن يكونوا لا يزالون مقنعي رؤوسهم ، رافعين لها إلى السماء مترصِّدين مركز القمر من الفلك، لا يغفلون عنه ، حتى إذا

حدث بجرم القمر حدثٌ من الانشقاق: أبصروه في وقت انشقاقه، قبل التئامه واتِّساقه . وكثيراً ما يقع للقمر الكسوف، فلا يشعر به الناس، حتى يخبرهم الآحاد منهم والأفراد من جماعتهم ... وإنما كان ذلك في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وقد استبعد هذا كثير من الملحدة، وبعض أهل الملة، من حيث إنه لو كان كذلك، للزم مشاركة جميع أهل الأرض في إدراك ذلك ؟

والجواب: أن هذا إنما كان يلزم، لو استوى أهل الأرض في إدراك مطالعه في وقت واحد، وليس الأمر كذلك، فإنه يطلع على قوم، قبل طلوعه على آخرين.

وأيضا: فإنما كان يلزم ذلك ، لو طال زمان الانشقاق، وتوفرت الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه، ولم يكن شيء من ذلك، وإنما كان ذلك في زمن قصير ، شاهده من نُبِّه له ...

ثم إنها كانت آية ليلية، وعادة الناس في الليل كونهم في بيوتهم نائمين، ومعرضين عن الالتفات إلى السماء إلا الآحاد منهم، وقد يكون منهم من شاهد ذلك، فظنه سحاباً حائلاً، أو خيالاً حائلاً.

وعلى الجملة : فالموانع من ذلك لا تنحصر، ولا تنضبط .

والذى يحسم مادة الخلاف بين أهل ملتنا أن نقول: لا بعد في أن يكون الله تعالى خرق العادة في ذلك الوقت، فصرف جميع أهل الأرض عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ، لتختص مشاهدة تلك الآية بأهل مكة ، كما اختصوا بمشاهدة آياته؛ كحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وكلام الشجر، إلى غير ذلك من الخوارق التي شاهدوها، ونقلوها إلى غيرهم . (المفهم)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وأما من سأل عن السبب في كون أهل التنجيم لم يذكروه، فجوابه: أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفاه، وهذا كاف .

٣-أيَّد الله نبيَّه وخاتمَ رسله ﷺ بمعجزاتٍ كثيرة وباهرة .

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: كان يأتيهم بالآيات الدالَّة على نبوَّتِه ﷺ ومعجزاتُه تزيد على ألف معجزة .

٤-لقد أيَّد الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الدالَّة على نبوَّته، ورأى مشركو مكَّة الكثيرَ منها، لكنَّهم لم يؤمنوا، ولم يذعِنوا للحقّ، بل طلبوا على سبيل العناد والاستِكبار المزيدَ من الآيات (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) .

٥-اقتراب موعد يوم القيامة، فكل آت قريب، وإن مرور عشرات القرون بعد نزول هذه الآية وأمثالها لا يعد شيئا في حساب عمر الدنيا الذي قدر بخمسة مليارات سنة.

٦-حدوث انشقاق القمر بمكة في عهد النبي ﷺ معجزة له .

٧-لم يجد المشركون طريقا لتكذيب آية الانشقاق إلا بأن يصفوه بأنه سحر محكم قوي شديد، من المرة وهي القوة، أو دائم نافذ مطرد، أو ذاهب، من قولهم: مر الشيء واستمر: إذا ذهب .

١٠ – باب لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ) .

[خ : ٦٠٩٩] .

==========

(**أَصْبَرَ**) أفعل تفضيل من الصبر، ومن أسمائه الحسنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: "الصبور"، ومعناه: الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريب من معنى الحليم، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة.

(**إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا**) تعالى الله عما يقولون.

(**وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ**) من البلاء والأمراض.

(**وَيَرْزُقُهم**) ما يحتاجون إليه.

١ – إثبات صفة الصبر لله تعالى، على ما يليق به سبحانه وتعالى.

قال الخطابي رحمه الله: الصَّبُوْرُ: هُوَ الذِي لَا يُعَاجِلُ العُصَاةَ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، بَلْ يُؤَخِّرُ ذَلِكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَيُمْهِلُهُم لِوَقْتٍ مَعْلُوْمٍ.

فَمَعْنَى الصبورِ فِي صِفَةِ الله سبْحَانَهُ، قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الحَلِيم؛ إلا أن الفَرْقَ بَين الأَمْرَيْنِ: أنهم لَا يَأْمَنُونَ العُقُوْبَةَ فِي صِفَةِ الصبورِ، كمَا يَسْلَمُونَ مِنْهَا فِي صِفَةَ الحَلِيْمِ، والله أَعْلَمُ بالصواب. ... (شأن الدعاء).

وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وهو الصبور على أذى أعدائه ** شـتموه بل نسبوه للبهتان
قالــوا له ولــد وليس يعيـدنا ** شتما وتكذيبا من الإنسان
هــذا وذاك بسـمعه وبعـلمه ** لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعـافيهـم ويرزقهم وهم ** يـؤذونـه بالشـرك والكفران

قال ابن القيم: فقد أطلق عليه تعالى أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له، هذه الصفة (وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله)، كما أن ما ورد في الأسماء الحسنى "الصبور" من أمثلة المبالغة، فهو أبلغ من "الصابر" والصبار. ومعنى الصبر معلوم في اللغة، والشرع، والعرف، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين، التي تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب.

وصبر الله تعالى لا يماثل صبر المخلوق، بل يختلف عنه من وجوه:

منها: أنه عن قدرة تامة.

ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت.

ومنها: أنه تعالى لا يلحقه بصبره ألم، ولا حزن، ولا نقص بوجه من الوجوه.

وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود في العالم بالعيان، كظهور اسمه تعالى الحليم. والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم، وموجبه، والحلم في صفاته تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء في القرآن في مواضع كثيرة، وجاء مقروناً مع اسمه العليم، كقوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) وقوله تعالى (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) وحلمه تعالى من لوازم ذاته.

وقال رحمه الله: ... فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومن احسانه فوق كل احسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته الى كل ما لا يليق به والقدح في كماله وأسمائه وصفاته والإلحاد في آياته وتكذيب رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى وتحريق أوليائه وقتلهم واهانتهم أمر لا يصبر عليه الا الصبور الذى لا أحد اصبر منه ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم الى آخرهم الى صبره سبحانه ... . (عدة الصابرين)

٢ – أن فيه إبانةً عن كرم الله –عَزَّ وَجَلَّ–، وصفحه، وفضله، في تأخير معاجلة العذاب، وإدرار الرزق على مؤذيه، فهذا كرمه في معاملة أعدائه، فما ظنك بمعاملة أصفيائه.

٣ – أن فيه الحثّ على تحمل الأذى فيما يؤلم العبد؛ ليُجازَى غداً جزاء الصابرين (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

٤ – دل الحديث على خطر الشرك بالله تعالى، سواء بادعاء أن له ولداً، أو باتخاذ الأنداد والشفعاء أو غير ذلك من صور الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى.

٥ – قوله (**على أذى سمعه من الله**) لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشر والمكروه، وذكره الخطابي .

قال شيخ الإسلام: "وهو كما قال، بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه، كما قال تعالى (وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً) فبين أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه.

فابن آدم يؤذي الله تعالى ويسبه، بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه، مثل نسبة الولد إليه تعالى والند، والشريك في العبادة، التي يجب أن تكون خالصة له وحده، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره، من الدهر، والطبيعة، والكون والمخلوقات، وغير ذلك، ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادتهم حوادثه، وأهلكتهم كوارث الطبيعة، ويا خيبة الدهر، وهذا زمان سوء، وما أشبه ذلك.

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره) فسب الدهر حرام ولا يجوز.

٦ – إثبات السمع لله.

٧–تنزيه الله عن الولد لكماله وغناه .

١١ – باب طَلَبِ الْكَافِرِ الْفِدَاءَ بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَبًا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ (يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ – أَحْسَبُهُ قَالَ – وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ) .

[خ : ٣٣٣٤] .

==========

(**فَيَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ**) الْمُرَاد أَرَدْت ، وفِي الرِّوَايَة الْأُولَى: طَلَبْت مِنْك وَأَمَرْتُك، وَقَدْ أَوْضَحَهُ فِي الرِّوَايَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: (قَدْ سُئِلْت أَيْسَر) فَيَتَعَيَّن تَأْوِيل (أَرَدْت) عَلَى ذَلِكَ جَمْعًا بَيْن الرِّوَايَات لِأَنَّهُ يَسْتَحِيل عِنْد أَهْل الْحَقّ أَنْ يُرِيد اللَّه تَعَالَى شَيْئًا فَلَا يَقَع.

١ – الحديث دليل على أن الله قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم بعدم الشرك.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

وقد اختلف العلماء في هذا الميثاق على قولين:

فذهبت جماعة من المفسّرين إلى أنّ مَعْنَى أَخْذِهِم من ظهور بني آدم هو وجودهم قَرْنًا بعد قَرْنٍ، وجيلاً بعد جِيل، على طريق التناسل.

والمعنى: أنّ اللهَ خلق بني آدم وخلق من هؤلاء ذرية، فينقضي هذا القرن ويخلق من هذا القرن ذرية كما قال (كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ).

وعلى هذا القول فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النُّطَف من أصلابهم على طريق التناسل قرنًا بعد قرن.

وعلى هذا القول فقوله (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ) أي: أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال.

لأن الله نصب لهم من الأدلة الواضحة الظاهرة على كمال قدرته وأنه المعبود وحْدَه ما لا يُحْتَاج معه إلى شيء (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) يعني: أَثْبَتَ لهم ربوبيته واستحقاقه للعبادة بما ركز فيهم من الفِطْرَة والعقول، وما نصب لهم من الأدِلَّة، وعلى هذا القول فقوله (قَالُوا بَلَى) قالوا ذلك أيضًا بلسان حالهم.

قالوا: الدليل على أنّ هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحدًا من بني آدم ذاكرًا الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جعل حجة مستقلة عليه.

القول الثاني: وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرْشِدُ إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله تبارك وتعالى أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمةٍ سبق في عِلْمِهِ أنها مخلوقة إلى يوم القيامة فأخذهم بيده (جلّ وعلا) بعضهم للجَنَّة وبعضهم للنار، وجعل فيهم إدراكًا وقال لهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فقالوا: بلى. إلاّ أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله (جلّ وعلا) أرسل الرسل يُذَكرون بهذا العهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرنا .

وهذا القول قال به كثير من السلف.

ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها حديث الباب.

فهذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين من حديث أنس، وقد ذكر فيه النبي ﷺ أن عدم الإشراك أُخِذ عليهم وهم في ظهر آدم، فدل ذلك على أن قوله (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أنه استخراج الله لهم، وإشهاده عليهم، ثم ردهم في ظهر أبيهم آدم. ومما يدل على هذا: أن الذين قالوا: إن معنى أخذهم من ظهورهم: هو تناسلهم قرنًا بعد قرنٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، أنهم جعلوا ما ركب فيهم من الفطرة السليمة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة القطعية كافيًا في قيام الحجة عليهم، والقرآن يدل على عدم صحة هذا القول؛ لأن القرآن العظيم – وهو كلام ربّ العالمين – دل على أنه لا يُقطع عذر أحد بنصب الأدلة، وتركيز الفطرة، وخلق العقول؛ بل لا ينقطع عذر بني آدم إلا بإرسال الرسل في دار الدنيا، إنذارهم مؤيّدين بالمعجزات.

ولذا قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) ولم يقل: حتى نخلق عقولاً ونركز أدلة وننصب فطرة. لم يقل شيئًا من هذا.

وقال جل وعلا (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فبيّن أن حجة الناس لا يقطعها إلا إعذار الرسل وإنذارهم له.

إذاً: عندنا في الميثاق قولان:

القول الأول: ما جاء في حديث ابن عباس من أن الله أخذ على الناس الميثاق في عالم الذر فقال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى، وهذا القول اختاره شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، ونسبه ابن القيم إلى جماعة وطائفة من السلف والخلف.

القول الثاني: الذي اختاره شيخ الإسلام رحمه الله وابن القيم وابن كثير في تفسيره من أن الميثاق هو ميثاق الفطرة لضعف حديث ابن عباس؛ ولأن الآية ليس فيها ما يدل على ذلك.

٢- الله تعالى أرسل الرسل لإقامة الحجة والتذكير بالميثاق.

قال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى).

وقال تعالى (وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقد صرَّح -جلّ وعلا- بأن جميع أفواج النّار الذين يدخلونها يوم القيامة أنهم جميعهم أنْذَرَتْهُمُ الرُّسُل في دار الدنيا، وقطعت أعذارهم قبل الموت، وذلك في قوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شيء إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ).

فقوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) يدل على أن جميع الأفواج التي دخلت النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

٣-إنَّ من أعظم ما يتحسَّر عليه أهل النار: أن الواحد منهم يتمنَّى أنه يفدي نفسه من عذاب الله بماله وولده والناس أجمعين؛ بل ومُلْك الدنيا بأَسْرها، مع أنه طلب منه أهون من ذلك فلم يفعل.

وقد قال تعالى (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ).

وقال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين).

١٢ - باب يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ.

عن أنس (أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ « أَلَيْسَ الَّذِى أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِى الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

[خ : ٤٧٦٠] .

===========

(**أَنَّ رَجُلاً**) قال ابن حجر : قوله (أن رجلًا) لم أقف على اسمه.

(**كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ**) الكافر اسم جنس يشمل الجميع ويؤيده قوله تعالى (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) وقوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً) .

(**قَالَ أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ** ...) ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته فلذلك استغربوه حتى سألوا عن كيفيته.

١-الحديث دليل على أن الكافر يحشر على وجهه.

كما قال تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا).

وقال تعالى (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً).

قال القرطبي: قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ) فيه وجهان:

أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا.

الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه.

وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس ... ثم ذكر حديث الباب . (تفسير القرطبي)

وهذا القول هو الراجح ورجحه: النحاس، والسمرقندي، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني، والآلوسي.

قال الشوكاني: أنهم يسحبون على وجوههم حقيقة، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه، وهذا هو الصحيح. (فتح القدير)

ولم يذكر ابن كثير غير هذا القول، واستظهره أبو حيان، واكتفى به البغوي.

٢-هذا المشي على الوجه على حقيقته .

قال ابن حجر -رحمه الله-قوله (أليس الذي أمشاه...) إلخ، ظاهر في أنَّ المراد بالمشي حقيقته، فلذلك استغربوه حتى سألوا عن كيفيته، وزعم بعض المفسرين أنه مَثَل، وأنه كقوله (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا) قال مجاهد: هذا مَثَل المؤمن والكافر، قلتُ: ولا يلزم من تفسير مجاهد لهذه الآية بهذا أنْ يُفسَّر به الآية الأخرى أي قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا) أو قوله (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ) فالجواب الصادر عن النبي ﷺ ظاهر في تقرير المشي على حقيقته.

وقال الحليمي -رحمه الله-فهذا الحديث يُنبئ أنَّ ذِكر الحشر على الوجه تحقيقٌ (أي: حقيقة) وليس بمثَلٍ للخشوع، وليس ذلك بمستنكَر.

٣-الحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عُوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأنْ يُسحب على وجهه في القيامة؛ إظهارًا لهوانه، بحيث صار وجهُه مكان يدِه ورجلِه في التوقِّي عن المؤذيات. (ابن حجر)

٤-من صفات حشر الكافر:

تنكيس الرؤس:

قال الله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ).

سواد الوجوه:

قال الله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) في هذه الآية الكريمة مشهدان:

المشهد الأول: ترهقهم ذلة، فيعتريهم الخوف والقلق من معاصيهم.

المشهد الثاني: كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً، من الذل وسوء ما قدموا قد علاها السواد والظلمة.

وقال تعالى (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ).

٥-ومن كيفيات الحشر يوم القيامة:

حشر المتكبرين

قال ﷺ (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان).

وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا فيه في الدنيا من تعاظم وغرور بأنفسهم، لأنهم كانوا في الدنيا يتصورون أنفسهم أعظم وأجل المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أحقر المخلوقات وأصغرها.

حشر السائلين:

الذين يسألون الناس وعندهم ما يغنيهم، يأتون يوم القيامة وفي وجوههم خموش أو كدوح، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم، يعرفهم الناس كلهم.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم) متفق عليه.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (من سأل وله ما يغنيه؛ جاءت خموشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة).

والجزاء من جنس العمل.

ومعنى الحديث: قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطاً لا قدر له ولا جاه، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه، لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء، لكونه أذل وجهه بالسؤال، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله؛ فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به.

والمعنى الأول الذي ذكره الخطابي تأويل للحديث بغير معناه، ولهذا قال ابن حجر: والأول صرف للحديث عن ظاهره.

وإن كان قد ورد ما يؤيده، وهو ما أخرجه الطبراني والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعاً (يزال العبد يسأل وهو غني؛ حتى يخلق وجهه، فلا يكون له عند الله وجه).

وقال ابن أبي جمرة: معناه: أنه ليس في وجهه من الحسن شيء، لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم، ومالَ المهلَّبُ إلى حمله على ظاهره .

٦-هوان الكافر يوم القيامة وأنه يمشي على وجهه.

٧-قدرة الله عز وجل على فعل كل شيء.

١٣ – باب صَبْغِ أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ وَصَبْغِ أَشَدِّهِمْ بُؤْسًا فِي الْجَنَّةِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤُسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) .

==========

(**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ**) أي: بأشدّهم تنعماً، وأكثرهم ظلماً .

(**فَيُصْبَغُ**) أي : يغمس .

(**يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟**) أي: فيما مضى من زمانك .

(**وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**) أي: شدة، ومشقّةً، ومحنةً، لِمَا كان فيه من فاقة، وحاجة، وبليّة .

١-الحديث دليل على أن كل نعيم في الدنيا بالنسبة للكافر فإنه يذهب بغمسة واحدة .

فبعد أول غمسة في النار ينسى أنعم أهل الأرض – ممن ولد وفي فمه ملعقة من ذهب – رفاهيته ونعيمه طوال حياته، حالفاً بالله أنه لم ير خيراً قط.

٢–لما كان كل نعيم الدنيا وما فيها يُنسى، أو تذهب لذته بغمسة واحدة في نار جهنم، فعلام نبالغ في طلبنا للدنيا ونتقاتل عليها ونخوض في ملذاتها؟

٣– بَيانُ حَقارةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ لِلآخِرةِ.

٤–**قال ابن القيم** : لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ... فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجورها ولم يميلوا اليها، وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد،

٥– إشارةٌ إلى أنَّ العاقلَ مَن نَظَر في المآلِ، لا في عاجلِ الحالِ.

٦–الترغيب في نعيم الجنة الدائم .

٧–شدة عذاب جهنم .

٨–أن المؤمن يجد في الدنيا الآلام والأوجاع والفقر رفعة له وزيادة في الأجر ... فبعد أول غمسة في الجنة تذهب الهموم والغموم، والفقر والمرض، والابتلاء والشدائد، والظلم والقهر، والآلام والأحزان، ويحلف ذلك المبتلى المؤمن أنه لم ير بؤساً ولا شدة قط!

٩–نعيم الآخرة ينسي شدة الدنيا وفقرها، وعذاب الآخرة ينسي نعيم الدنيا ولذاتها.

١٤ – باب جَزَاءِ الْمُؤْمِنِ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَتَعْجِيلِ حَسَنَاتِ الْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا) .

وفي لفظ (إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ) .

==========

١–هذا الحديث يتكلم عن عمل الكافر — أعمال الخير والحسنات في الدنيا – إذا مات على كفره .

والانتفاع بها يكون إما في الآخرة وإما في الدنيا :

أولاً : في الأخرة : باطلة ولا تنفعه يوم القيامة.

كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً).

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ « لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) رواه مسلم .

قال النووي: معنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة، لكونه كافراً، وهو معنى قوله ﷺ رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل.

ثانياً : في الدنيا : يجزى صحة في الدنيا وصحة في الرزق والولد .

لحديث الباب .

قال النووي : أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْكَافِر الَّذِي مَاتَ عَلَى كُفْره لَا ثَوَاب لَهُ فِي الْآخِرَة، وَلَا يُجَازَى فِيهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَله فِي الدُّنْيَا، مُتَقَرِّبًا إِلَى اللَّه تَعَالَى، وَصَرَّحَ فِي هَذَا الْحَدِيث بِأَنَّهُ يُطْعَم فِي الدُّنْيَا بِمَا عَمِلَهُ مِنْ الْحَسَنَات، أَيْ: بِمَا فَعَلَهُ مُتَقَرِّبًا بِهِ إِلَى اللَّه تَعَالَى مِمَّا لَا يَفْتَقِر صِحَّته إِلَى النِّيَّة، كَصِلَةِ الرَّحِم وَالصَّدَقَة وَالْعِتْق وَالضِّيَافَة وَتَسْهِيل الْخَيْرَات وَنَحْوهَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِن فَيُدَّخَر لَهُ حَسَنَاته وَثَوَاب أَعْمَاله إِلَى الْآخِرَة، وَيُجْزَى بِهَا مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، وَلَا مَانِع مِنْ جَزَائِهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَقَدْ وَرَدَ الشَّرْع بِهِ فَيَجِب اِعْتِقَاده.

قال الشيخ الألباني : تلك هي القاعدة في هذه المسألة: أن الكافر يجازى على عمله الصالح شرعا في الدنيا، فلا تنفعه حسناته في الآخرة، ولا يخفف عنه العذاب بسببها فضلا عن أن ينجو منه .

قال ابن علان –رحمه الله– (وأما الكافر فيُطْعَمُ) بالبناء للمفعول: أي: يُرزق «بحسنات ما عمل بها»، الباء الأولى للسببية، والثانية للبدل، أي: بدلها ... وفيه: تنبيه على أن جزاء الكافر على عمَلِه بالحسنة الدنيوية إنما هي فيما إذا كان العمل الصالح لا لرِيَاء أو سُمعة ... وفيه: إيماء إلى إحباطهما ثواب العمل وصفة الثواب دنيا وأخرى .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (وأما الكافر فيُطعَم) بصيغة المجهول لا غير، أي: يُعطى، وفي العُدول إشارة إلى أن مَطْمَحَ نَظَر الكافر في العطاء إنما هو بَطْنُه.

والمعنى: أنه يُجزى (بحسنات ما عَمِل بها لله) أي: من إطعام فقير، وإحسان ليتيم، وإغاثة ملهوف، ونحوها من طاعات، لا يشترط في صحتها الإسلام، «في الدنيا» ظرف لـ «يُطعَم». .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– أيضًا : وحاصله: أنَّ الله يُقابِل عبده المؤمن بالفضل، والكافر بالعدل، ولا يُسْأَلُ عما يُفعل .

٢–وأما المؤمن فيجازيه في الدنيا والآخرة .

قال القرطبي –رحمه الله–قوله (إنَّ الله لا يظلم مؤمنًا حسنة) يعني: لا يُنْقِصُه ولا يَمْنَعُه ثوابها في الدار الآخرة والأولى. .

وقال النووي –رحمه الله–قوله (إنَّ الله لا يظلم مؤمنًا حسنة) يعني: لا يُضيعُ حسنةَ المؤمن، بل يُعطي المؤمنَ بِحَسَنته أجر الدنيا، وأجر الآخرة. .

وقال النووي –رحمه الله– أيضًا ومعناه: لا يَترك مجازاته بشيء من حسناته، والظلم يُطلق بمعنى النقص .

٣–قوله (**يُعْطَى بها في الدنيا، ويُجْزَى بها في الآخرة**) .

أي : أنَّ المؤمن يُثاب بالحسنة في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فيُجزى جزاءً وافيًا، وأما في الدنيا فيُعطى أيضًا شيئًا منه، كطِيب العيش، وفراغ الخاطر، وسلامة الحال .

قال النووي : فأما أجْرُ الدنيا: فهو أن يدفع عنه البلاء، ويوسِّع رزقه، ويُحسن جماله، ويُحبِّبه في قلوب الناس ، وأما أجر الآخرة: فاللقاء والجنة.

وقال الطيبي -رحمه الله- معناه: أنَّ المؤمن إذا اكتسب حسنة، يُكافئه الله تعالى؛ بأن يُوسِّع عليه رزقه، ويُرْغِد عيشه في الدنيا، وبأن يُجزى ويُثاب في الآخرة ، والكافر إذا اكتسب حسنة في الدنيا؛ بأن يَفُكَّ أسيرًا أو يُنقِذَ غريقًا، يُكافئه الله تعالى في الدنيا، ولا يُجزيه في الآخرة .

٤-الحديث دليل على فَضلُ الإيمانِ وأنَّه الرُّكنُ الأساسيُّ لقَبولِ أعمالِ العِبادِ.

وكما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب).

٥-الحديث دليل على التَّحذيرُ منَ الشِّركِ وبيانُ شُؤمِ الكُفرِ، وأنَّه مِن مُحبِطاتِ الأعمالِ الصَّالحاتِ.

٦-الحديث دليل على أنَّ مَن ماتَ على الكُفرِ لا يَنفَعُه عَملٌ.

٧-بيان عدل الله مع عباده بأن يوفيهم أجورهم حتى الكفرة الفجرة.

١٥ - باب مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالزَّرْعِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَشَجَرِ الأَرْزِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ وَلاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلاَءُ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأَرْزِ لاَ تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ) .

[خ : ٥٦٤٤] .

عن كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُفِيئُهَا الرِّيحُ وَتَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا لاَ يُفِيئُهَا شَيْءٌ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً) .

==========

(**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ**) الخامة هي: الغضة الرطبة من النبات .

(**تُفِيئُهَا الرِّيحُ**) أي: تردها من جانب إلى جانب، وقد بين ذلك بقوله: تصرعها مرة وتعدلها أخر .

(**وَتَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ**

(**وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ**) الأرزة: شجرة الصنوبر، وسميت بذلك لثبوتها .

١-معنى الحديث :

قال النووي : **قَالَ الْعُلَمَاء** : مَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ الْمُؤْمِن كَثِير الْآلَام فِي بَدَنه أَوْ أَهْله أَوْ مَاله ، وَذَلِكَ مُكَفِّر لِسَيِّئَاتِهِ ، وَرَافِع لِدَرَجَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكَافِر فَقَلِيلهَا ، وَإِنْ وَقَعَ بِهِ شَيْء لَمْ يُكَفِّر شَيْئًا مِنْ سَيِّئَاته ، بَلْ يَأْتِي بِهَا يَوْم الْقِيَامَة كَامِلَة .

وقال القرطبي : وهذا مثل للغالب من المؤمنين والغالب من الكافرين، وحكمة الله في ابتلاء المؤمنين في الدنيا أن يهديهم فيها، ويخلصهم من تبعاتها، وأن توفر أجورهم في الآخرة، وعكس ذلك في الكفار والمنافقين.

وفائدة هذا الحديث المصائب، والصبر عليها، وانتظار الثواب عليها، والخوف من عدم المصائب وبسط الدنيا.

وقال ابن رجب : في هذه الأحاديث أن النبي ﷺ ضرب مثل المؤمن في إصابة البلاء لجسده بخامة الزرع التي (تفيئها الريح) يمنة ويسرة. والخامة: الرطبة من النبات ... وَمَثَّل المنافق والفاجر بالأرزة وهي الشجرة العظيمة التي لا تحركها الرياح ولا تزعزعها حتى يرسل الله عليها ريحًا عاصفًا فتقتلعها من الأرض دفعة واحدة.

ففي هذا فضيلة عظيمة للمؤمن بابتلائه في الدُّنْيَا في جسده بأنواع البلاء ... وتمييز له عَلَى الفاجر والمنافق بأنه لا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله فيلقى الله بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها.

٢-وقال رحمه الله : واعلم أن تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام يشتمل عَلَى فوائد جليلة نذكر ما يسر الله منها.

فمنها : أن الزرع ضعيف مستضعف والشجر قوي مستكبر متعاظم، فالشجر لا يضعف من حر ولا برد، ولا من كثرة ماء ولا من ريح، والزرع بخلاف ذلك، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، وبين أهل الجنة والنار.

كما في " الصحيحين" عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ قال (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) .

وفي "المسند" عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالُوا: بَلَى. قال: الضُّعفاء المغلوبون. «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «كُلُّ شَدِيدٍ جَعْظَرِيٍّ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَأْلَمُونَ رُءُوسَهُمْ) .

وخرجاه في "الصحيحين" عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا المتَجَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرونَ ...) الحديث.

وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة مع حسن منظرهم .

فَقَالَ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) .

فوصفهم بحسن الأجسام وتمامها، وحسن المقال وفصاحته، حتى يعجب من منظرهم من رآهم، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به، ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم فارغة، فلهذا مثلهم بالخشب المسندة، التي لا روح لها ولا إحساس، وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) لأنهم لما أضمروا خلاف ما أظهروا خافوا الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب يظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شيء ويحسبه عليه.

وأما المؤمن فبعكس هذه الصفات، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم. فقلوبهم ثابتة قوية عامرة، فيكابدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته؛ لضعف قلبه، ولا يخافون من ظهور ما في قلوبهم إلا خشية الفتنة عَلَى نفوسهم، فإن بواطنهم خير من ظواهرهم، وسرهم أصلح من علانيتهم.

قال سليمان التيمي: أتاني آت في منامي فَقَالَ: يا سليمان إنَّ قوة المؤمن في قلبه.

فالمؤمن لما اشتغل بعمارة قلبه عن عمارة قالبه استضعف ظاهره، وربما ازدري، ولو علم الناس ما في قلبه لما فعلوا ذلك.

ومنها : أن ثمرة الزرع وهو السنبل يستضعف ويطمع فيه كل أحد لقرب تناوله فيطمع الآدمي في الأكل منه وفي قطعه وسرقته، والبهائم في رعيه، والطير في الأكل منه، وكذلك المؤمن يستضعف، فيعاديه عموم الناس؛ لأنّ الإسلام بدأ غريبًا ويعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. فعموم الخلق يستضعفه ويستغربه، ويؤذيه لغربته بينهم.

وأما الكافر أو المنافق أو الفاجر الَّذِي كالصنوبرة، فإنه لا يطمع فيه، فلا الرياح تزعزع بدنه، ولا يطمع في تناول ثمرته لامتناعها.

ومنها : أن المؤمن يمشي مع البلاء كيف ما مشى به، فيلين له فيقلبه البلاء يمنة ويسرة، فكلما أداره استدار معه، فيكون عاقبته العافية من البلاء وحسن الخاتمة، وتوقي ميتة السوء. فلهذا كان مثله كمثل السنبلة تفيئها الرياح يمنة ويسرة، فلا تضره الرياح كما في أمثال العرب: إذا رأيت الريح عاصفًا فتطامن، أي: إذا رأيت الأمر غالبًا فاخضع له.

ومنها : أن الزرع وإن كانت كل طاقة منه ضعيفة ضئيلة؛ إلا أنه يتقوى بما يخرج معه وحوله ويعتضد به بخلاف الشجر العظام، فإن بعضها لا يشد بعضًا، وقد ضرب الله تعالى مثل نبيه ﷺ وأصحابه بالزرع لهذا المعنى قال (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى) .

ومنها : أن الزرع ينتفع به بعد حصاده، فإنه يحصده أربابه، ثم يبقى منه بعد حصاده ما يلتقطه المساكين، وترعاه البهائم وتأكله الطير، وربما استخلف بعضه فأخرج منه ثانية، وبيع منه من الحب ما ينبت مرارًا.

وهكذا مثل المؤمن يموت ويخلف ما ينتفع منه، من علم نافع وصدقة جارية وولد صالح ينتفع به.

وأما الفاجر فإنه إذا انقلع من الأرض لم يبق فيه نفع بل ربما أثر ضررًا، فهو: كالشجرة المنجعفة لا تصلح إلا لوقيد النار.

ومنها : أن الزرع في حمله مبارك، كما ضرب الله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء.

ومنها : أن الحب الَّذِي ينبت من الزرع هو قوت الآدميين، وغذاء أبدانهم ، وسبب حياة أجسادهم، فكذلك الإيمان هو قوت القلوب وغذاء الأرواح وسبب حياتها، ومتى فقدته القلوب ماتت، وموت القلوب لا يرجى معه حياة أبدًا، بل هو هلاك الدُّنْيَا والآخرة .

٣-وبهذا يظهر الجمع بين حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع والفاجر بشجرة الأرز، وبين حديث تمثيل المؤمن بالنخلة. فإن التمثيل بالزرع لجسده؛ لتوالي البلاء عليه، والتمثيل بالنخلة إيمانه وعمله .

٤- فضيلة عظيمة للمؤمن بابتلائه في الدُّنْيَا في جسده بأنواع البلاء، وتمييز له عَلَى الفاجر والمنافق بأنه لا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله فيلقى الله بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها.

والنصوص في تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب كثيرة جدًّا.

ففي "الصحيحين" عن عائشة، عن النبي ﷺ قال (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا).

وفيهما : أيضًا عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال (مَا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٌّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) .

وفيهما أيضًا عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَاتَ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ) .

وفي رواية (يُصِيبُهُ أَذى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا) .

وعن سعد عن النبي ﷺ قال (لاَ تَزَالُ الْبَلَايَا بِالْعَبْدِ حَتَّى تَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا بِهِ خَطِيئَةٌ) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (ما تزال البلايا بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلاَ يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا) رواه ابن حبان .

وعن جابر عن النبي ﷺ قال (لاَ يَمْرَضُ مُؤْمِنٌ وَلاَ مُؤْمِنَةٌ وَلاَ مُسْلِمٌ وَلاَ مُسْلِمَةٌ إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ)كَمَا يَحُطُّ الوَرَقَ عِنِ الشَّجَرَةُ) رواه ابن حيان .

٥-في هذا الحديث: تهذيب المسلمين، فيأنس المؤمن بالمتاعب والمصائب، ويتلقَّاها بالرضا والصبر والاحتساب، راجيًا أن تكون خيرًا له عند ربه .

١٦ – باب مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّخْلَةِ

عن ابن عمر . قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ ». فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ « هِيَ النَّخْلَةُ ». قَالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ قَالَ لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ هِيَ النَّخْلَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا) .

[خ : ٦١] .

==========

(**فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي**) أَيْ : ذَهَبَتْ أَفْكَارهمْ إِلَى أَشْجَار الْبَوَادِي ، وَكَانَ كُلّ إِنْسَان يُفَسِّرهَا بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاع شَجَر الْبَوَادِي وَذَهِلُوا عَنْ النَّخْلَة .

(**فاسْتَحْيَيْتُ**) جاء في الرواية الأخرى (فأردت أن أقول هي النخلة فإذا أنا أصغر القوم) وفي رواية (فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم).

١–قوله (**مثل المؤمن** ...) التشبيه بين النخلة والمؤمن، جاء عند البزار عن مجاهد عن ابن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ (مثل المؤمن مثل النخلة، ما أتاك منها نفعك) وإسناد صحيح، وقد أفصح بالمقصود بأوجز عبارة.

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: وَشَبَّهَ النَّخْلَة بِالْمُسْلِمِ فِي كَثْرَة خَيْرهَا، وَدَوَام ظِلّهَا، وَطِيب ثَمَرهَا، وَوُجُوده عَلَى الدَّوَام، فَإِنَّهُ مِنْ حِين يَطْلُع ثَمَرهَا لَا يَزَال يُؤْكَل مِنْهُ حَتَّى يَيْبَس، وَبَعْد أَنْ يَيْبَس يُتَّخَذ مِنْهُ مَنَافِع كَثِيرَة، وَمِنْ خَشَبهَا وَوَرَقهَا وَأَغْصَانهَا ... ثُمَّ جَمَال نَبَاتهَا، وَحُسْن هَيْئَة ثَمَرهَا، فَهِيَ مَنَافِع كُلّهَا، وَخَيْر وَجَمَال، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِن خَيْر كُلّه، مِنْ كَثْرَة طَاعَاته وَمَكَارِم أَخْلَاقه، وَيُوَاظِب عَلَى صَلَاته وَصِيَامه وَقِرَاءَته وَذِكْره وَالصَّدَقَة وَالصِّلَة، وَسَائِر الطَّاعَات، وَغَيْر ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الصَّحِيح فِي وَجْه التَّشْبِيه. (شرح مسلم)

– أما من زعم أن موقع التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها ماتت، أو لأنها لا تحمل حتى تلقح، أو لأنها تموت إذا غرقت، أو لأن لطلعها رائحة منيّ الآدمي، أو لأنها تعشق، أو لأنها تشرب من أعلاها، فكلها أوجه ضعيفة.

وقال القرطبي: وقع التشبيه بين النخلة والمؤمن من جهة أن أصل دين المسلم ثابت وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب وأنه لا يزال مستورا بدينه وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حيا وميتا انتهى وقال غيره: والمراد بكون فرع المؤمن في السماء رفع عمله وقبوله.

٢–وجه تمني عمر أن يكون ابنه قد قال الجواب:

أ– ما طبع عليه الإنسان من محبة الخير لنفسه ولولده.

ب– ولتظهر فضيلة الولد في الفهم من صغره.

ج– وليزداد من النبي ﷺ حظوة، ولعله كان يرجو أن يدعو له إذ ذاك بالزيادة في الفهم.

٣–الحديث دليل على امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى مع بيانه لهم إن لم يفهموه.

٤ – الحديث دليل على استحباب الحياء ما لم يؤد إلى تفويت مصلحة، ولهذا تمنى عمر أن ابنه لم يسكت.

٥–وفيه توقير الكبار كما فعل ابن عمر لكن إذا لم يعرف الكبار المسألة فينبغي للصغير الذي يعرفها أن يقولها. [نووي]

٦ – وفيه سرور الإنسان بنجابة ولده وحسن فهمه. [نووي]

٧ – وفيه التحريض على الفهم والفقه في العلم.

٨ – وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام وتصوير المعاني في الأذهان.

٩ – وفيه مشروعية السؤال والجواب في العلم والتعليم.

١٠ – وفيه التنويع في أسلوب التعليم.

١١–في الحديث أن العالم الكبير قد يخفى عليه بعض ما يدركه من هو دونه، لأن العلم مواهب، والله يؤتي فضله من يشاء.

١٧ – باب تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)

عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ – قَالَ – فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ فَيَلْتَزِمُهُ) .

=========

(**وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**) قال البغوي – رحمه الله–:"التحريش: إيقاع الخصومة والخشونة بينهم.

وقال الإمام ابن الأثير – رحمه الله– التحريش: الإغراء بين الناس بعضهم ببعض.

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله–قوله (ولكن في التَّحريش بينهم) أي: في الخلاف والشُّرور والعداوة والبغضاء بينهم، حتى تكون من ذلك أمثال تلك الفتن العظيمة والخطوب الجسيمة.

(**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاء**) وفي رواية (على البحر) الْعَرْش هُوَ سَرِير الْمُلْك، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ مَرْكَزه الْبَحْر، وَمِنْهُ يَبْعَث سَرَايَاهُ فِي نَوَاحِي الْأَرْض.

وعند أحمد: عرش إبليس على البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة أفتنهم للناس.

والصحيح حمله على ظاهره، ويكون من جملة تمرده، وطغيانه وضع عرشه على الماء يعني جعله الله تعالى قادراً عليه استدراجاً ليغتر بأن له عرشاً على هيئة عرش الرحمن كما في قوله تعالى (وكان عرشه على الماء).

(**ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ**) جمع سرية، وهي قطعة من الجيش توجه نحو العدو لتنال منه، وفي النهاية هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو، وسموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري، وهو النفيس، وقيل: لأنهم يبعثون سراً.

(**فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ**) هُوَ بِكَسْرِ النُّون وَإِسْكَان الْعَيْن وَهِيَ نِعْمَ الْمَوْضُوعَة لِلْمَدْحِ فَيَمْدَحهُ لِإِعْجَابِهِ بِصُنْعِهِ، وَبُلُوغه الْغَايَة الَّتِي أَرَادَهَا.

١ – الحديث دليل على خطر الشيطان وعداوته للإنسان وأنه يسعى في التحريش بينهم .

قال تعالى (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً) .

أي: وقُلْ –يا مُحَمَّدُ– آمِرًا عبادي المؤمِنينَ بأن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ في مُحاوراتِهم ومُخاطباتِهم الكَلامَ الأحسَنَ؛ مِن الكَلِماتِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ اللَّطيفةِ، التي هي أحسَنُ مِمَّا سِواها.

قال ابن كثير: يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم

وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها.

وقال السعدي: قوله تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) هذا الجملة (إن الشيطان ينزغ بينهم) تعليل للأمر بقول التي هي أحسن.

والمقصود من التعليل أن لا يستخفوا بفاسد الأقوال فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان.

النزغ: الإفساد والإغراء.

أي: قُلْ لهم يَقولوا التي هي أحسَنُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ البَعيدَ مِن الرَّحمةِ وكُلِّ خَيرٍ يقومُ بالإفسادِ بينهم، وتَهييجِ العَداواتِ والشُّرورِ، مِن المخاصَمةِ والمقاتَلةِ وغَيرِ ذلك.

فيه التحذير من الكلام الغير الحسن لأن الشيطان يزينه ويوجده حتى تحدث الخصومات والمنازعات.

٢-التحذير من التحريش بين المسلمين، وأن من يقوم بذلك فإنه معين للشيطان.

٣-**قال ابن الملك** -رحمه الله- قوله (من أن يعبدَه المصلُّون) أي: المؤمنون، عبَّر عنهم بالمصلِّين لأن الصَّلاة هي الفارقة بين الإيمان والكفر، أراد بها: عبادة الصَّنم، وإنما نسبها إلى الشَّيطان؛ لكونه داعيًا إليها. «في جزيرة العرب»...خُصَّت بالذِّكر لأنها معدن العبادة ومهبط الوحي، ولم يكن الإسلام يومئذٍ إلَّا بها. .

٤-من أعمال الشيطان:

أولاً: زرع العداوة والبغضاء بين الناس.

كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).

وقال تعالى عن يعقوب (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ).

وقال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً).

ثانياً: وهو يخوف المؤمنين بالأعداء.

كما قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي: يخوفكم بأوليائه.

ثالثاً: ويخوف بالفقر.

كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) .

فيخوف المسلم من الفقر وذلك لأمور: أولاً: ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم، ثانياً: ليصيبه بالقلق والحزن، ثالثاً: ليشك بوعد الله: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، رابعاً: ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين).

رابعاً: ويحث على الرياء في الإنفاق والتبذير.

قال تعالى (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قريناً).

وكما قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً).

خامساً: الدعوة إلى الكفر والارتداد عن الدين.

كما قال تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العلمين).

وقال تعالى عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون).

وقال تعالى (ألم اعهد إليكم يا بني ادم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين).

وقال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملي لهم).

سادساً: وهو يحب أن يحزن المؤمن.

كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا).

وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه.

٥-ومن عداوته محاولته إيقاع العداوة بين الرجل وزوجته.

وقد روى البخاري في الأدب المفرد عن أزهر بن سعيد قال سمعت أبا أمامة يقول: إن الشيطان يأتي إلى فراش أحدكم بعد ما يفرشه أهله ويهيئونه فيلقي عليه العود والحجر أو الشيء ليغضبه على أهله فإذا وجد ذلك فلا يغضب على أهله، قال: لأنه من عمل الشيطان.

وما يزال الشيطان يعلن العداوة لبني الإنسان منذ أن لُعن وطُرد من رحمة الله سبحانه وتعالى ولقد طلب من الله عز وجل الإنظار وطول الحياة ليضل العباد ويفتنهم عن دينهم

ولقد توعد العدو باتخاذ كافة السبل لذلك قال الله تعالى (قال فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين).

٦-قوله (**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَب**) ما الجمع بينه وبين قوله ﷺ (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) رواه مسلم؟

اختلف العلماء على أقوال :

القول الأول : المراد أن الشيطان قد أيس أن يجتمعوا كلهم على الكفر.

وإلى هذا ذهب ابن رجب.

القول الثاني : أن النبي ﷺ أخبر عما وقع في نفس الشيطان من اليأس عندما رأى الفتوح ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ولكن لا يلزم من هذا عدم وقوع الشرك وعبادة سوى الله تعالى، لأن الأمر يقع على خلاف ما ظنه الشيطان، كما دلت على ذلك الأحاديث الأخرى التي فيها إخبار النبي ﷺ بوقوع الشرك .

قالوا: ويدل على هذا القول أن النبي ﷺ نسب الإياس في الحديث إلى الشيطان مبنيًّا للفاعل، فلم يقل: أُيس بالبناء للمفعول، بمعني أن الله أيسه، فالإياس الصائر من الشيطان لا يلزم تحقيقه واستمراره .

ذكر هذا الجواب الشيخ عبد الله أبا بطين، وإليه ذهب الشيخ محمد العثيمين .

القول الثالث: أن المراد أن الشيطان لا يطمع أن يعبده المؤمنون في جزيرة العرب، وهم المصدقون بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه المذعنون له، الممتثلون لأوامره، إذ أن من كان على هذه الصفة فهو على بصيرة ونور من ربه، فلا يطمع الشيطان أن يعبده، ذكر هذا الجواب الألوسي .

القول الرابع : ما ذهب إليه أبو العباس القرطبي من أن المعني: "أن المسلمين في جزيرة العرب ما أقاموا الصلاة فيها وأظهروها، لم يظهر فيها طائفة يرتدون عن الإسلام إلى عبادة الطواغيت والأوثان، فإذا تركوا الصلاة وذهب عنهم اسم المصلين فإذ ذلك يكونون شرار الخلق وهذا إنما يتم إذا قبض الله المؤمنين بالريح الباردة ... وحينئذٍ تضطرب أليات دوس حول ذي الخلصة وتُعبد اللات والعزى .

٧–عبادة الشيطان عبادة الصنم، لأنه الآمِرُ به والداعي إليه، بدليل قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: (يا أبت لا تعبد الشيطان...).

٨–الشيطان يَسعى في إيقاع الخصومات والشَّحْناء والحروب والفتن بين المسلمين.

٩–من فوائد الصلاة في الإسلام أنها تَحفظ المودّة بين المسلمين، وتُقَوّي روابط الأُخُوّة بينهم.

١٠–الصلاة أعظم شعائر الدين بعد الشهادتين، ولذلك أطلق على المسلمين المصَلّين.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ ». قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ) .

==========

١–القرين هو الملازم المصاحب للإنسان، وهو من الجن كما نص على ذلك رسول الله ﷺ كما في هذا الحديث، ومهمة القرين هي إغواء الإنسان وأمره بالشر كما هو واضح في الحديث .

وقال سبحانه (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) وقد ذكر القرطبي أن القرين في الآية هو: الشيطان، وحكى المهدوي : عدم الخلاف في هذا.

قال ابن كثير رحمه الله: (**قال قرينه**) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وُكِّل به. (**ربَّنا ما أطغيته**) أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامةَ كافراً يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ربنا ما أطغيته أي: ما أضللتُه. (**ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ**) أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحقّ .

كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

(**قال لا تختصموا لديَّ**) يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلَّني عن الذِّكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ربَّنا ما أطغيتُه ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ أي: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: لا تختصموا لدي أي: عندي، وقد قدمت إليكم بالوعيد أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. (**ما يبدل القول لديَّ**) قال مجاهد: يعني: قد قضيتُ ما أنا قاض. (**وما أنا بظلاَّم للعبيد**) أي: لست أعذِّب أحداً بذنب أحدٍ، ولكن لا أعذِّب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه . (ابن كثير)

والقرين شيطان يقترن بابن آدم، ويسعى جاهداً ليضله عن سواء السبيل، ولا يمكن للمسلم أن يسيطر على قرينه ويدخله في الإسلام، لأن الله سبحانه جعل ذلك ابتلاءً للعبد، ليعلم المؤمن من غيره ... فالقرين هو الشيطان الموَكَّل بكل إنسان لإغوائه وإضلاله .

٢- قوله (... **إلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ**) .

قد اختُلف في ضبط: (أَسْلَمَ) فمنهم من ضبطها هكذا بفتحة على الميم. أي: صار مسلماً.

ومن اختار هذا الضبط، قال يؤيده السياق، حيث ورد بعدها: (فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ).

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقوله: (إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ): جمهور الرواة يقولون: فأسلمَ، بفتح الميم، ويريدون أن الشيطان صار مسلماً...قوله: (فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ) فحينئذ يزول عنه اسم الشيطان ويصير مسلماً، ويكون هذا مؤيداً لرواية الجمهور . (المفهم)

ذهب بعضهم إلى أن لفظ: (فَأَسْلَمُ) بضمة على الميم، أي: النبي ﷺ قد سلم من شر الشيطان ووساوسه.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: قوله: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ): رويناه بالضبطين من الرفع والفتح، فمن رفع تأولها: فأسلم أنا منه، وهى التي صحح الخطابي ورجَّح " انتهى من "إكمال المعلم"

قال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى: وسَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ خَشْرَمٍ يَقُولُ: قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ، يَعْنِي: أَسْلَمُ أَنَا مِنْهُ. قَالَ سُفْيَانُ: وَالشَّيْطَانُ لاَ يُسْلِمُ " انتهى من "السنن" .

وقال أصحاب هذا الرأي: إن عبارة : (فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ) لا يلزم منها إسلامه، فقد يسلم من وسوسته بالشر، ولا يأتيه منه إلا الخير، لعارض آخر سوى إسلامه. كما في قصة أبي هريرة ﷺ، المشهورة، قَالَ: (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ؛ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .. فَذَكَرَ الحَدِيثَ، فَقَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ). رواه البخاري

قال النووي : قَوْله ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينه مِنْ الْجِنّ ، قَالُوا : وَإِيَّاكَ ؟ قَالَ : وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللَّه أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ) (فَأَسْلَم) بِرَفْعِ الْمِيم وَفَتْحهَا ، وَهُمَا رِوَايَتَانِ مَشْهُورَتَانِ فَمَنْ رَفَعَ قَالَ : مَعْنَاهُ : أَسْلَمُ أَنَا مِنْ شَرّه وَفِتْنَته ، وَمَنْ فَتَحَ قَالَ : إِنَّ الْقَرِين أَسْلَمَ ، مِنْ الإِسْلام وَصَارَ مُؤْمِنًا لَا يَأْمُرنِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الأَرْجَح مِنْهُمَا فَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : الصَّحِيح الْمُخْتَار الرَّفْع ، وَرَجَّحَ الْقَاضِي عِيَاض ، الْفَتْح وَهُوَ الْمُخْتَار ، لِقَوْلِهِ : " فَلا يَأْمُرنِي إِلا بِخَيْرٍ " ، وَاخْتَلَفُوا عَلَى رِوَايَة الْفَتْح ، قِيلَ : أَسْلَمَ بِمَعْنَى اِسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ ، وَقَدْ جَاءَ هَكَذَا فِي غَيْر صَحِيح مُسْلِم (فَاسْتَسْلَمَ) وَقِيلَ : مَعْنَاهُ صَارَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر . (نووي)

فالحاصل: أن دلالة الحديث المذكور على إسلام قرين النبي ﷺ: محتملة، وليست بقاطعة.

وعلى القول بإسلامه، فإن الاستثناء في الحديث يفهم منه عدم إسلام قرناء سائر الناس، وأن إسلام قرين النبي ﷺ كان كرامة خاصة لرسول الله ﷺ .

وقال ابن تيمية عن قوله ﷺ (ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم) المراد في أصح القولين استسلم وانقاد لي، ومن قال حتى أسلم أنا فقد حرف معناه، ومن قال الشيطان صار مؤمناً فقد حرف لفظه . اهـ

والحافظ ابن حبان، فإنه روى الحديث في صحيحه، وجزم برواية فتح الميم، وقال: في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير ، لا أنه كان يسلم منه إن كان كافرا ، وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل .

٣-وعليه : فإنه لا يشرع للمسلم أن يدعو الله بإسلام قرينه ؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء بسؤال الله ما هو من خصائصه ﷺ ، ولأن الصحابة وهم أحرص الناس على الخير وأقرب إليه منا لم يُنقل عنهم الدعاء والتوجه لله حتى يسلم قرناؤهم من الجن ، ولا استعانوا بدعاء الرسول ﷺ لما سمعوا منه ذلك الحديث ، فهذا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهم من هم من علو الهمة لم ينقل عنهم أنهم فعلوا ذلك ولا أبناؤهم ونحن يجب علينا اتباع هدي هؤلاء الصحابة الكرام لأنهم فهموا هذا الدين من مصدره وتعلموه مباشرة من رسول الله ﷺ غضًّا طرياً ، ولا يجوز لنا اتباع غير سبيلهم قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

٤-الحديث ورد في سياق تحذير الصحابة من فتنة القرين ، قال النووي : (وَفِي هَذَا الْحَدِيث : إِشَارَة إِلَى التَّحْذِير مِنْ فِتْنَة الْقَرِين وَوَسْوَسَته وَإِغْوَائِهِ ، فَأَعْلَمَنَا بِأَنَّهُ مَعَنَا لِنَحْتَرِز مِنْهُ بِحَسَبِ الإِمْكَان) وهذا هو الواجب شرعا .

٥-قال القاضي: واعلم أن الأمَّة مجتمعة على عصمة النَّبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه.

١٨ - باب لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (قَارِبُوا وَسَــدِّدُوا وَاعْلَمُــوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ ».قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْتَ قَالَ : وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) .

وعنه . عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ ، قَالَ رَجُلٌ وَلاَ إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : وَلاَ إِيَّايَ إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَلَكِنْ سَدِّدُوا) .

==========

(**سَدِّدُوا**) أي: الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط.

(**وقَارِبُوا**) أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرُب منه، وجاء في رواية (وَأَبْشِرُوا) أي: استبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذ لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وجاء في حديث عائشة (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ... وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلّ).

قال ابن الجوزي : المقاربة: الْقَصْد فِي الْأُمُور من غير غلو وَلَا تَقْصِير.

(**إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله**) أي: يُلْبِسنِيهَا وَيُغَمِّدنِي بِهَا، وَمِنْهُ أَغْمَدْت السَّيْف وَغَمَدْته إِذَا جَعَلْته فِي غِمْده وَسَتَرْته بِه.

١ - الحديث دليل على الاستقامة والاجتهاد في سلوك الاستقامة، وذلك بلزوم طاعة الله.

لقوله (قَارِبُوا وَسَدِّدُوا).

قال النووي في شرح صحيح مسلم: ومعنى (سددوا وقاربوا) اطلبوا السداد واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه أي: اقربوا منه، والسداد الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا.

وقال ابن رجب: (فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا) التسديد: هو إصابة الغرض المقصود، والمقاربة أن يقارب الغرض وإن لم يُصبه، لكن يكون مجتهداً على الإصابة، فيصيب تارة ويقارب أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال ﷺ (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم).

وقال الحافظ ابن حجر: السداد ومعناه: اقصدوا السداد أي الصواب، وقال: اعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره، ليقبل عملكم فتنزل عليكم الرحمة.

٢-والعمل يكون على السداد والصواب بشرطين:

الأول: أن يكون مخلصاً لله تعالى.

كما قال ﷺ(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

الثاني: أن موافقاً للشريعة.

لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

قال ابن القيم: فجمع في هذا الحديث مقامات الدّين كلّها، فأمر بالاستقامة وهي السّداد، والإصابة في النّيّات والأقوال، وأخبر في حديث ثوبان أنّهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالّذي يرمي إلى الغرض، وإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فقد أخبرهم أنّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يرى أنّ نجاته به؛ بل إنّما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله، فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدّين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصّدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنّيّات، فالاستقامة فيها، وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله.

٣ – تبشير من سلك طريق الاستقامة للتوفيق من الله لقوله (وأبشروا) أي: استبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذ لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره.

٤ – أنه لا أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله وفضله لا بعمله كما في حديث الباب، وعند أحمد (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله).

٥-**فإن قيل**: ما الجمع بيه هذا الحديث وبين قوله تعالى (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقوله تعالى (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

فالجواب من وجوه:

قيل: العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا أن الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك، والعمل نفسه من فضل الله ورحمته على عبده، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته.

وهذا مذهب ابن حزم، والبيهقي، وابن العربي، والنووي، وابن رجب، والشوكاني.

قال النووي : وَفِي ظَاهِر هَذِهِ الْأَحَادِيث : دَلَالَة لِأَهْلِ الْحَقّ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقّ أَحَد الثَّوَاب وَالْجَنَّة بِطَاعَتِهِ ، وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (اُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْكَ الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث، بَلْ مَعْنَى الْآيَات: أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل. وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة. وَاَللَّه أَعْلَم. (شرح مسلم)

وقال ابن رجب: وفي رواية الإمام أحمد في حديث معاذ أنَّه قال: يا رسول الله، إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ عن كلمةٍ قد أمرضَتني وأسقمتني وأحزنتني، قال: سل عمَّا شئتَ، قال: أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنَّة لا أسألُكَ غيرَه، وهذا يدلُّ على شدَّةِ اهتمامِ معاذٍ ﷺ بالأعمال الصَّالحة، وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ) وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد -والله أعلم- أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله -بفضله ورحمت- سبباً لذلك، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته.

وقيل: إن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله وفضله، وعليه يُحمل الحديث، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال، وعليه تحمل الآية.

وهذا مذهب ابن بطال، وأبي عبد الله القرطبي.

قال القسطلاني -رحمه الله-قوله (لن يدخل أحدًا عمله الجنة) واستشكل بقوله تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وأجيب: بأن محمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال؛ لأن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأن محمل الحديث على أصل دخول الجنة.

وقال ابن بطال : ومعنى الحديث غير معنى الآية، أخبر النبي ﷺ في الحديث أنه لا يستحق أحد دخول الجنة بعمله، وإنما يدخلها العباد برحمة الله، وأخبر الله تعالى في الآية أن الجنة تُنال المنازل فيها بالأعمال، ومعلوم أن درجات العباد فيها متباينة على قدر تباين أعمالهم، فمعنى الآية في ارتفاع الدرجات وانخفاضها والنعيم فيها، ومعنى الحديث في الدخول في الجنة والخلود فيها، فلا تعارض بين شيء من ذلك .

وقيل: إن الباء في الآية ليست للسببية، بل للإلصاق أو المصاحبة، والمعنى: أورثتموها ملابسة أو مصاحبة لأعمالكم.

وهذا مذهب الكرماني، واختيار العيني.

وقيل: إن الآية في العمل المقبول، والحديث في العمل المجرد من القبول.

وهذا مذهب الحافظ ابن حجر، والشنقيطي.

والراجح الأول. ... (انظر: كتاب الأحاديث المشكلة).

٦-**قال الكرماني**: "إذا كان كلُّ الناس لا يدخلون الجنة إلا برحمة الله، فوجْه تخصيص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذِّكْر هو أنه إذا كان مقطوعًا له بأنه يدخل الجنة، ولا يدخلها إلا برحمة الله؛ فغيرُه يكون في ذلك بطريق الأَولى.

٧-العبد لا يَغتر ويُعجَب بعمله مهما بلغ؛ لأنّ حقَّ الله أعظم من عمله، فلا بد للعبد من الخوف والرجاء جميعًا.

٨-فضل الله ورحمته على عباده أوسع من أعمالهم .

٩-فضل العمل الصالح .

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ ». قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ) .

[خ : ٦٤٦٤] .

==========

(**أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**) أي: أكثرها تتابُعًا ومواظبة .

١-قوله (**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**) أي: استبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذ لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره.

٢-الحديث دليل على أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، فالحديث فيه حث على الاقتصاد في العمل، والأخذ منه بما يتمكن صاحبه من المداومة عليه.

لقوله (وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ) .

وفي حديث عائشة . قال : قال ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ! عَلَيْكُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ). رواه البخاري ومسلم

٣-الحكمة في كون القليل الدائم محبوب عند الله :

قال النووي: فيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثيرٍ ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة.

وقال ابن الجوزي: إنما أحب العمل الدائم لمعنيين:

أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصول، فهو متعرض لهذا.

والثاني: أن مداومة الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتاً ما كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع.

وقال ابن رجب: وهكذا كان عمل النبي ﷺ وعمل آله وأزواجه من بعده، وكان ينهى عن قطع العمل، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) وقال ﷺ (يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجل فيقول: قد دعوتُ فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء) وقال الحسن: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً على طاعة الله فبغاك وبغاك، فإن رآك مداوماً ملّكَ ورفضك، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك.

وقال القرطبي : وسبب محبته للدائم: أن فاعله لا ينقطع عن عمل الخير، ولا ينقطع عنه الثواب والأجر، ويجتمع منه الكثير وإن قل العمل في الزمان الطويل، ولا تزال صحائفه مكتوبة بالخير، ومصعد عمله معمورًا بالبر، ويحصل به مشابهة الملائكة في الدوام، والله أعلم.

وقال ابن بطال -رحمه الله-حضّ النبي ﷺ أُمَّتَهُ على القصد والمداومة على العمل وإنْ قَلَّ؛ خشية الانقطاع عن العمل الكثير، فكأنه رجوعٌ في فعل الطاعات، وقد ذمَّ الله ذلك .

وقال الغزالي -رحمه الله-قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه؛ وذلك القَدْرُ من الماء لو صُبَّ عليه دفعة واحدة لم يؤثر؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ «خير الأعمال أَدْوَمُهَا وإن قَلَّ»، والأشياء تُسْتَبَانُ بأضدادها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قلَّ، فالكثير المنصرم قليلُ النفع في تنوير القلب وتطهيره.

وقال العيني -رحمه الله-فيه: الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع؛ وذلك لأن ما يداوم عليه بلا مشقة ومَلَل تكون النفس به أنشط، والقلب مُنْشَرِحًا، بخلاف ما يتعاطاه مِن الأعمال الشاقة؛ فإنه بصدد أن يتركه كله أو بعضه، أو يفعله بغير الانشراح فيفوته خير كثير. وفيه: الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها

وقال ابن الملك -رحمه الله- (وإنْ قلَّ) أي: العمل، وإنما كان العمل الذي يُداوَم عليه أحبَّ؛ لأن النفس تَأْلَفُ به، ويدوم بسببه الإقبالُ على الله تعالى .

وقال الكرماني : والحاصل أن العمل القليل مع المداومة والمواظبة خيرٌ من العمل الكثير مع ترك المراعاة والمحافظة .

٤- فضائل العمل الصالح المداوم عليه :

أولاً: أن العمل المداوم عليه محبوب لله.

كما في حديث الباب (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل).

وسئل ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال (أدومه وإن قل) متفق عليه.

ثانياً: أن المداومة على العمل من هدي النبي ﷺ .

عن عائشة قالت (كان رسول الله إذا عمل عملاً أثبته) رواه مسلم.

وعنها قالت (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه) متفق عليه، أي: لازموه وداوموا عليه.

وقال لعبد الله بن عمرو (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) رواه مسلم.

ثالثاً: أن المداومة على العمل سبب لمحبة الله.

كما في الحديث القدسي (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ..). رواه البخاري

رابعاً: أن المداومة سبب لإظلال العبد في ظل الله.

في الحديث (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظله إلا ظله: وذكر منها: وشاب نشأ في عبادة الله، ... إلخ) .

ومن المعلوم أنه لابد من الاستمرار على ذلك ليحصل على الأجر.

خامساً: أن المداومة سبب لطهارة القلب من النفاق.

لأن المنافق تثقل عليه العبادة والطاعة ولا يستطيع أن يستمر بها. (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى).

سادساً: أن المداومة على العمل سبب للنجاة من الشدائد.

في الحديث قال ﷺ (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) رواه الترمذي.

سابعاً: أن المداومة على العمل فيه دوام اتصال القلب بالله.

وهذا يزيد القلب قوة وثباتاً ونشاطاً وتوكلاً وتعلقاً بالله.

ثامناً: أن المداومة على العمل ترويض للنفس على الطاعة.

ولهذا قيل: نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

تاسعاً : اسْتِمْرارُ أَجْرِ العَمَلِ الصَّالِحِ المُعْتَادِ عليه .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ؛ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا) .

قال ابنُ حَجَرٍ رحمه الله : هُوَ فِي حَقِّ مَنْ كَانَ يَعْمَلُ طَاعَةً، فَمُنِعَ مِنْهَا، وَكَانَتْ نِيَّتُهُ – لَوْلَا المانِعُ – أَنْ يَدُومَ عَلَيْهَا .

٥–قوله (**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**) .

سر محبة الله تعالى للمداومة على الأعمال الصالحة تتلخَّص في أمور، منها ما يلي:

أولاً: أن العمل الصالح يُحبه الله تعالى فلذلك يجب المداوَمة عليه.

ثانيًا: أن المداومة على العمل الصالح دليل الرغبة فيه ومحبته وعدم كراهيته، وهذا مما يحبه الله تعالى بخلاف تركه والتجافي عنه؛ فهي مُشعِرة بالتكاسُل عنه واستثقاله .

كما أخبر الله تعالى عن المنافقين بقوله (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) .

وقال عنهم (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) .

ثالثًا: أنه يشعر بقوة الإيمان وصدقِه بخلاف الذي ينقطع عن العمل ويَتركه .

ولهذا قال رسول الله ﷺ (ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه أحمد .

رابعًا: أن الأصل فيما أمر الله به أن يفعل على الدوام ويُحافظ عليه؛ ففي المحافظة تطبيق للأوامر وعمل بالنصوص وتعظيم لها وتعظيم لشريعة الله .

قال تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) .

وقال تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

خامسًا: في المداومة على العمل الصالح إغاظة للشيطان؛ لأن عدو الله تعالى يحب تثبيط المسلم عن العمل الصالح، فإذا رآه يداوم عليه ويستمر فيه كان ذلك سببًا لغيظه؛ فمن قطع العمل كان موافقًا لما يُحبه إبليس، ومن داوم عليه كان موافقًا لما يحبه الله تعالى ويَغيظ الشيطان.

٦-الحث على الاقتصاد في العبادة وعدم التعمق.

٧-بيان شفقته ﷺ ورأفته بأمته، لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة.

١٩ - باب إِكْثَارِ الأَعْمَالِ وَالاِجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) .

[خ : ٤٨٣٧] .

==========

١-لحديث دليل على شدة عبودية النبي ﷺ لربه سبحانه وتعالى.

٢ - الحديث دليل على مشروعية قيام الليل، ولقيام الليل فضائل:

أولاً: أن الله تبارك وتعالى مدح أهله.

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال ابن كثير: تتجافى جنوبهم عن المضاجع: يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

يدعون ربهم خوفاً وطمعاً: أي خوفاً من وبال عقابهِ وطمعاً في جزيل ثوابهِ.

ومما رزقناهم ينفقون: فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية.

ثانيا: قيام الليل من علامات المتقين.

قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ).

قال الحسن البصري في الآية: لا ينامون من الليل إلا أقله، كابدوا قيام الليل.

وفي قوله سبحانه (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) قال الرازي في الآية: إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير، وهذه سيرة الكريم: يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به.

ثالثاً: قيام الليل من صفات عباد الرحمن. أولياء الله ومن أسباب دخول الجنة.

يقول تعالى في وصف عباد الرحمن (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ... أولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

رابعاً: وفرق تعالى بين من قام الليل ومن لم يقمه، ممتدحاً صاحب القيام.

فقال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

خامساً: قيام الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة.

عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص، ولأن صلاة الليل أشق على النفوس، فإن الليلَ محل النومِ والراحة من التعب بالنهار، فترْك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدةٌ عظيمةٌ، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر، فإنه تنقطع الشواغل بالليل، ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم كما قال تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً).

سادساً: من أسباب دخول الجنة.

عن عبد الله بن سلام. قال: قال ﷺ (أيها الناس! أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي.

سابعاً: قيام الليل سبب للنجاة من الفتن.

فالصلاة عموماً، وصلاة الليل خصوصاً سبب من أسباب النجاة من الفتن.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتِ (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ) رواه البخاري.

ففي هذا الحديث دليل وتنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن.

ثامناً: أنه شرف للمؤمن.

فقد جاء في الحديث عن سهل قال: قال ﷺ (جاءني جبريل! فقال يا محمد! اعمل ما شئت فإنك مجزي به، ... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني وحسنه الألباني.

فقيام الليل شرف للمؤمن، لأنه دليل على إخلاصه، ودليل على ثقته بربه، ودليل على قوة إيمانه، فيرفعه الله ويعزه ويرفع مكانته ويعلي درجته لأنه خلى بالله تعالى.

تاسعاً: لهم غرف في الجنة.

قال ﷺ (إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام) رواه أبو داود.

عاشراً: بقيام الليل يدرك المصلي وقت النزول الإلهي.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (ينزل ربنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له) متفق عليه

الحادي عشر: وصف النبي ﷺ من يقوم الليل بنِعم الرجل.

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ (كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ غُلاَماً شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ – قَالَ – فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ، فَكَانَ بَعْدُ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً) رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر: فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نِعم الرجل.

الثاني عشر: قيام الليل من أسباب المغفرة والرحمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه أبو داود.

الثالث عشر: من فضل قيام الليل أنه من مظان الإجابة.

عن جابر. قال: قال رسول الله ﷺ (إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة الا أعطاه وذلك كل ليلة) متفق عليه.

٣ – السلف وقيام الليل.

قالت عائشة (يا عبد الله! لا تدع قيام الليل، فإن النبي ﷺما كان يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى وهو قاعد) متفق عليه.

وجاء في موطأ الإمام عن ابن عمر قال (كان عمر يصلي في الليل حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله وقرأ: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى).

وقال أبو عثمان النهْدي: تضيفت أبا هريرة سبعة أيام [أي نزلت عليه ضيفاً] فكان هو وزوجه وخادمه يقتسمون الليل أثلاثاً، الزوجة ثلثاً وخادمه ثلثاً وأبو هريرة ثلثاً.

وكان سليمان التيمي عنده زوجتان وكانوا يقتسمون الليل أثلاثاً.

والحسن بن صالح كان يقتسم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثاً، فماتت أمه، فاقتسم الليل هو وأخوه علي، فمات أخوه فقام الليل بنفسه.

وكان محمد بن واسع إذا جنّ عليه الليل يقوم ويتهجد، يقول أهله: كان حاله كحال من قتل أهل الدنيا جميعاً.

وكان الإمام أبو سليمان الداراني يقول: والله لولا قيام الليل ما أحببت الدنيا، ووالله إن أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، وإنه لتمر بالقلب ساعات يرقص فيه طرباً بذكر الله فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه من النعيم إنهم لفي نعيم عظيم.

وكانت امرأة حبيب بن محمد الزاهد توقظه بالليل وتقول: ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قُدّامنا ونحن قد بقينا، وكانت تقول:

يا راقــدَ الـليــلِ كـم ترقـــدُ ... قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخـــذ مـن الليــــلِ وأوقــاتهِ ... ورْداً إذا ما هجـعَ الرُّقــدُ
من نـــامَ حتى ينقضـــي ليلهُ ... لم يبـلغ المنـزلَ أو يجهــدُ
قل لأولي الألبابِ أهلِ التقى ... قَنطرةُ العَرْضِ لكم موعدُ

وقال أبو الدرداء: صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور.

وقال أحمد بن حرب: عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقَه، والنار تضرم تحته، كيف ينام بينهما.

وكان شداد بن أوس إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح.

وحين سألت ابنة الربيع بن خثيم أباها: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنية إن أباكِ يخاف السيئات.

ويروى أن طاووساً جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، قال: ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر.

وكان عبد الله بن داود يقول: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، كان لا ينام الليل.

وذكر أن عامراً لما احتضر جعل يبكي، فقيل: ما يبكيك يا عامر؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا، ولكني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء.

وقال محمد بن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في جماعة.

وقال الحسن البصري: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال، وإن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

٤ – الحديث دليل على وجوب شكر النعم، وأن شكر النعمة من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٥ – الحديث دليل على أن الشكر يكون بالجوارح كما يكون بالقلب واللسان.

قال ابن حجر: وفيه أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان كما قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً).

ثم قال والشكر الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة فمن كثر ذلك منه سمي شكورا ومن ثم قال سبحانه: وقليل من عبادي الشكور.

ولذلك تعريف الشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان.

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، وحديث الباب.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجِل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله.

٦ – الحديث دليل على أن من خصائص النبي ﷺ أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

أولاً: لحديث الباب.

ثانياً: لحديث علي قال: قال ﷺ (وجعلت أمتي خير الأمم، وسميت أحمد، وغفر لي ما تقدم من ذنبي) رواه أحمد.

٧ – الحديث دليل على شرف وفضل العبودية لله تعالى، وأن الإنسان كلما كان أكثر عبودية لله كان أكثر رفعة عند الله.

وقد وصف الله نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات:

أولاً: في مقام التحدي.

قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا).

ثانياً: في مقام الإسراء.

كما قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ...).

ثالثاً: في حال إنزال القرآن.

كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا).

رابعاً: في مقام الدعوة إلى الله.

قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

٨- إن رزق الله للعبد يستلزم شكره:

فسليمان عندما رأى عرش بلقيس عنده مستقراً (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ).

ونبينا ﷺ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ويقول: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً.

٢٠ - باب الاقْتِصَادِ فِي الْمَوْعِظَةِ

عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ (كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُذَكِّرُنَا كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا نُحِبُّ حَدِيثَكَ وَنَشْتَهِيهِ وَلَوَدِدْنَا أَنَّكَ حَدَّثْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ. فَقَالَ مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إِلاَّ كَرَاهِيَةُ أَنْ أُمِلَّكُمْ. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا) .

[خ : ٦٨] .

==========

(عَنْ أَبِي وَائِلٍ) شقيق بن سلمة.

(كان عَبْدُ اللَّهِ) يعني ابن مسعود.

(يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ) أي: يتعهدنا، والموعظة: النصح والتذكير.

١ - الحديث دليل على أن النبي ﷺ كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل.

٢ - وفي الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوماً بعد يوم فيكون الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط: الحاجة مع مراعاة وجود النشاط.

٣ - أخذ بعض العلماء من حديث الباب كراهة تشبيه غير الرواتب بالرواتب بالمواظبة عليها في وقت معين دائماً.

٤ - وفيه حرص السلف على العلم والخير.

٥ - وفيه الشفقة على الناس من السآمة من الخير.

٦ - وفيه أن النفس تسأم وتمل فينبغي مراعاتها.

٧ - وفيه أن تخصيص يوم بشيء من العلم أو التذكير ليس من البدع بشيء، بل هو مشروع.

٨-ذم التطويل في الموعظة والإكثار منها.

٩ – فضل الحكمة في التعامل مع الناس ووعظهم.

١٠ – أن للمواعظ والتذكير سنن وآداب يحسن بالواعظ معرفتها لكي يستفاد من موعظته.

١١–بيان أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.